مكتبة ياسمين

طِفْلا نافِخ الزّجاج

تأليف: ماريا جرييه رسوم: هارالد جرييه

دار المنى

رواية بقلم ماريا جريبه الحائزة على ميدالية هانز كريستيان أندرسون تقديراً لمساهماتها العظيمة والدائمة في إثراء أدب الأطفال.

كلاس وكلارا هما طفلا نافخ الزجاج ألبرت وزوجته صوفيا، ولهما يعيشان بسعادة في كنف والديهما المحبّين والعطوفين، إلى أن تحدث تلك الحادثة!

في هذا الكتاب تؤلّف ماريا جريبه بين قصص الحواري والأساطير الاسكندنافية لتزودنا بحكاية تتضمن مفهومًا عصريًّا. كتاب يُقرأ لتُعاد قراءته من جديد؛ فهو يؤثر في المرء تأثيراً بالغًا قبل أن يصبح نمطه متكاملاً، وعندما يحدث هذا، يأخذ كلّ تفصيل دقيق فيه مكانه المناسب.

ليزلي كروم – *The Times Literary Supplement*

ISBN 978-91-87333-42-2

طِفْلا نافِخ الزُّجاج

تأليف: ماريا جريبه

رسوم: هارالد جريبه

دار المنى

telegram @
yasmeenbook

Arabic edition © Dar Al Muna Stockholm 2016
Text © 1964 Maria Gripe
Illustrations © Harald Gripe
Published by agreement with Bonnier Agency Stockholm
Original title in Swedish: Glasblåsarens barn by Albert Bonniers Förlag, Stockholm
Arabic text: Ibrahim Abdulmalik
Editing: Sukaina Ibrahim
Arabic text © Bokförlaget Dar Al Muna AB
Printed at ScandBook, Falun 2016
Translation has been sponsored by the Swedish Art Council
ISBN 978 91 87333 42 2
Bokförlaget Dar Al Muna AB Box 127
182 05 Djursholm Sweden
www.daralmuna.com

المقطع الأول:

telegram @
yasmeenbook

«... إذا لَمْ يعرف المرءُ
مصيرَهُ مُسبَقًا، فَلَهُ أن يعيشَ
هانئ البال»

HAVAMAL

١

سَكَنا قَرْيَةً قَديمَةً لَمْ يَعُد لها وجودٌ. كانَت هذه القريةُ تُدعى نودا، وتقَعُ في أَبَرَشِيَّةِ ديسَبَريا. والحديثُ هُنا عن ألبرت، نافِخ الزُّجاجِ، وزَوجَته. وُلِدَ ألبرت في الجِوارِ، بينما يعودُ أصلُ زَوجته إلى الشَّمالِ، واسمُها صوفيّا التي يُشَبِّه الناظِرُ جمالَها الصّافي بالوَردَةِ.

أمّا طِفلاهُما فاسماهُما كلاس وكلارا. ألبرت هو مَن سَمّاهُما، وأرادَ بِذلكَ أنْ يُذكّرا بِمِهنَتِهِ. فـ ''كلاس'' على وزنِ ''غلاس'' أي الزُّجاج، كَما يذهبُ اسمُ ''كلارا'' بالفِكرِ إلى الصّفاءِ.

كانَ ألبرتْ فقيراً مُعدمًا، لا يملكُ سوى الكوخِ الذي يَسْكُنونَ ومَشغَلَ الزُّجاجِ. كانَ الكوخُ بالغَ الصِّغرِ جِدًّا، تشغلُ ساعةٌ قديمةٌ أحدَ جدرانِه، وتقومُ أسفَلَ منها أريكَةٌ. وفي الجِهَةِ المُقابِلَةِ خزانَة عادِية بأدراج، وفي الواجِهَةِ عندَ النافِذَةِ تنتصب الطّاوِلَةُ. كان ألبرت وصوفيّا ينامانِ على الأريكَةِ، بينما ينامُ الطِّفلانِ في الخِزانَةِ ذاتِ الأدراجِ.

كانَ الموقِدُ عَريضًا ويشَغَلُ جُزءًا كبيراً مِنَ المَكانِ. وفي ذلكَ الموضعِ عُلِّقَ دولابُ النُّولِ، وفوقَهُ تَدَلّى من السقفِ مَهْدٌ هَزّازٌ مُثَبّتٌ بكَلّابَينِ حَديديَّين، خُصّصَ لنومِ الطّفلين عِندما كانا رَضيعين. والآن أصبحَت صوفيّا تُخَبّئ فيهِ أشياءَ تريدُ الاحتفاظَ بها لِنَفسِها.

كانَ بابُ الحُجْرَةِ إلى جانبِ الموقدِ، وفي الحجرةِ خِزانةُ مَلابس وكُرسيّ. ولا شَيء هُناك أكثَر من ذلكَ.

لَمْ يَكُنْ مَشغَلُ الزُّجاجِ كبيراً بِدَورِه، ولكِنَّهُ وسِعَ ألبرت ومساعدَه، وكذلكَ كلاس وكلارا عِندما يأتيانِ لِلفُرجَةِ، وهذا أَهَمُّ شَيْءٍ.

بدتَ الزُّجاجِيّاتُ المَنفوخَةُ في المشغلِ مِن أرقَى ما يُمكِنُ أن تراهُ العينُ. فقد كانَ ألبرت خَبيراً ماهراً في صُنْعِ الزُّجاجِ، أمّا بَيْعُهُ فَمِمّا لا يُحسِنُهُ. فَهوَ يَمضي إلى السُّوقِ في الخريفِ وفي الربيعِ، ولكِنَّهُ لا يُفلِحُ في بيعِ الكثيرِ. بالكادِ ما يكفي مَعيشَتَهُمْ، لا أكثرَ.

وكُلَّما آنَ أوانُ تنعيمِ أليافِ الكَتّانِ ذهَبَتْ صوفيّا إلى الفلّاحينَ وعملَت معَهم. آنذاكَ يرافقُها الطِّفلانِ، فينالُ الثلاثَةُ الطّعامَ هناكَ. وتحصلُ صوفيّا على لِفافَةِ كَتّانٍ ورَغيفِ خُبزٍ في اليَومِ أُجرَةَ عَمَلِها، فيَعيشونَ بذلكَ عيشة ترفٍ.

كان كلاسْ أصغرَ مِن أُختِهِ بسنةٍ واحدةٍ فقط. ومع أنّهُ ما زالَ لا يُحسنُ المشي بَعد، كانَ قادِراً على الجُلوسِ ساعاتٍ يتفرّجُ على أبيهِ وهوَ ينفُخُ الزُّجاجَ. ينفخهُ بالسُّهولَةِ ذاتِها التي يَنفُخُ بِها طِفلٌ فَقاقيعَ الصّابونِ، كانَ ألبرت ماهراً في صناعَةِ كؤوسٍ ساطعةٍ وَأَوعِيَةٍ لامِعةٍ. وهي لا تُفَرْقِعُ كالفُقاعاتِ، بلْ تبقى على حالِها، وتقِفُ مضيئةً في صُفوفٍ طويلَةٍ على الرُّفوفِ. وهذا لَطالما بدا أشبَهَ بِمُعْجِزَةٍ.

درجَ كلاس على الجلوسِ أرضًا في رُكنِهِ ساكِنًا حابِسًا أنْفاسَهُ، يتأمّلُ الأقداحَ البرّاقةَ تتوالَى كألعابٍ ساحرٍ مِن مِنفاخِ ألبرت. يراها تكبرُ وتُحَلِّقُ فوقَ رأسِهِ. فيرتسمُ في عَينَيْهِ تعبيرٌ مفعمٌ بالتَّوقِ، كأَنَّما يرى شيئًا تطولُ وتطولُ أبعادُه. ماذا

كانَ يَرى يا تُرى؟ وما الذي فَكَّرَ فيهِ؟ أهيَ السماءُ أَم ربّما البَحرُ؟ لَم يَعرِفْ، فهو أصغرُ مِن أنْ تُسعِفَهُ الكلِماتُ. بَيْدَ أنَّ ألبرت اعتادَ أن يبتسمَ ابتسامةَ العارِفِ، فالأمرُ نفسُهُ يحدُثُ مَعَهُ. إنَّما هوَ الجمالُ ما رأياهُ. مكتبة ياسمين

كانَت كلارا أكبَرَ من أخيها بسنةٍ طبعًا. أَحَبَّتْ هِيَ الأُخرى قضاءَ الوَقتِ في مَشغَلِ الزُّجاجِ، ولكِنَّها لَمْ تَرغَبْ في الجُلوسِ هناكَ بِلا حَراكٍ. وفي بعضِ الأحيانِ يحدثُ وهي هناكَ أن تقعَ قطعةُ زجاجٍ أو أكثَر، وتتهشّمُ فوراً مُتَحَوّلَةً إلى ألفِ شظيةٍ دَفعَةً واحدَةٍ. إلا أنّها لم تكن تأبهُ بذلكَ كثيراً، بلْ تسارعُ إلى الخروجِ من المشغلِ راقِصَةً وتقصدُ البيتَ حيثُ لَفائفُ الكَتّانِ، وهي أروَعُ ما في الدُّنيا في نَظَرِها.

أمّا كلاس فَتَصَرَّفَ دائمًا بِغَرابَةٍ كُلَّما تَكَسَّرَتْ قِطْعَةٌ مِنَ الزُّجاجِ، ففي البدايةِ يُهَلِّلُ ابتهاجًا من صوت التَّحَطُّم، ثُمَّ يظهرُ عليه الخوفُ ويشرعُ في البكاءِ عندَما يرى الشَّظايا على الأرضِ. وبما أنَّ شيئًا لا يُعزيه آنَذاك، يضطرُ ألبرت إلى حَملِه والخروجِ بهِ مِن هناكَ. وأحيانًا يتَمَلَّكُه الغَضَبُ ثم يعودُ ويُفكّر أن لا بُدّ لِكلاس عمّا قريبٍ مِن أن يعتادَ على رؤيةِ الزّجاجِ المُتكسّر، بَيْد أنّ كلاس لَمْ يَفعَلْ. على النقيضِ من هذا، ما انفكّ بكاؤهُ يزدادُ حدّةً مَعَ كُلِّ مَرَّةٍ، وما عادَ ألبرت يَجرُؤ على استِقبالِهِ في المَشغَلِ.

كانَ ذلِكَ تصرّفًا غريبًا من كلاس بالتأكيدِ، إلّا أنهُم لَمْ يُولُوهُ أَهَمِّيَةً بالِغَةً، فَلَدى كُلٍّ مِنهُمْ ما يَشغَلُهُ.

وأَلْبرت مشغولُ البالِ بالزُّجاجِ. بالزُّجاجِ فَقَط. الزُّجاج في جميعِ أشكالِه. الزجاجُ بمختلف أنواعِهِ. زُجاجٌ بَرّاقٌ، زجاجٌ لَمّاعٌ عاكِسٌ، رَنّانٌ، مُغَنٍّ... زُجاجٌ. دائمًا زُجاجٌ.

وصوفيّا، لَعَلَّها رَأَتْ أنَّ ألبرت اهتَمَّ بالزُّجاجِ أكثرَ مما يَجِبُ. بل لعلّها رأَتْ أَنَّهُ أحَبَّ الزُّجاجَ أكثَرَ مما أحبَّها. فَكَمْ حَدَثَ أنَّ طلعَت الشَّمْسَ وغابَتْ، ومثلَها فَعَلَ القَمَرُ، وألبرت في المشغَلِ ينفُخُ الزُّجاجَ، بينَما هي تَجلِسُ عِندَ النّافِذَةِ تُحَدِّقُ وَتَنتَظِر! نعم، حَدَثَ ذلكَ كثيراً...

أما كلارا فكانت سعيدَةً دَوْمًا. وكيفَ لَها ألا تَكونَ وهِيَ اسمٌ على مُسَمّى، كلارا التي تملكُ لِفافَةَ كَتّانٍ تُمشّطها وتَضْفرها، وكِسرةَ زُجاجٍ تَتَمَرّى بها؟ وهذا أكثَرُ مِمّا تَبتَغي!

هكذا احتَفَظَ كلاس بِطَبْعِهِ الغريبِ الصَّغيرِ لِنَفسِهِ. لَمْ يَفهَمْ أحَدٌ أنَّهُ بِبَساطَةٍ

أدركَ أنَّ أَرْوَعَ الأشياءِ أكثرُها رِقَّةً وَهَشاشَةً حَتْمًا. وأنَّ ذلكَ مُخيفٌ وصعبٌ بالنسبَةِ إلى طفلٍ صغيرٍ مِثلِه لا يَعرِفُ شيئًا عَن طبيعَةِ الزُّجاجِ. فَمِنَ المُحزِنِ حقًّا أن يكونَ الأجمَلُ عُرضَةً سَهلَةً للكَسرِ!

ولكِنَّ أحدًا لَمْ يُفكِّر في ذلكَ، خصوصًا صوفيّا، التي بَدأتْ تراودُها هواجِسُ سَيئةٌ. نَما داخلَها الإحباطُ والسُّخْطُ. وفي إحدَى اللَيالي لما عادَ ألبرت مِن مَشغَلِ الزُّجاجِ رآها تَبكي أمامَ النّافِذَةِ، وقد قَبعت في الظَّلام من غيرِ أن تُشعِلَ ضوءًا، والقمرُ ينيرُ وَجهَها قليلًا، ودموعُها تتلألأ على دَفَّةِ النّافِذةِ. لَمْ تَرفَعْ بَصَرَها.

– ماذا يجري بحَقِّ السَّماءِ؟ أتَجلِسينَ باكِيَةً هنا؟ هتفَ ألبرت مُنزَعِجًا.

فأجابَتْهُ مُنتَحِبَةً:

– إنّني أُشعرُ بالوَحشَةِ في غيابِكَ الدائمِ عَنِ البَيتِ.

فَبَرَّرَ لَها ألبرت طولَ غيابِهِ بانهماكِهِ في صناعةِ إناءٍ فَريدٍ مِنْ نَوعِهِ. وما علَيها إلا أنْ تَصبرَ قليلًا فَقَطْ، وبَعْدَئذٍ ستراه في البيتِ أكثرَ من السَّابقِ.

لكنَّ صوفيّا تَحَسَّرَتْ. فَهيَ تَعرِفُ جَيِّدًا ما سَيَجري بعدَ ذلك، على حَدِّ قَولِها. فَحالما ينتهي مِنْ صناعَةِ ذلكَ الإناءِ الرائعِ، سيُفَكِّرُ في صناعَةِ إناءٍ أَروَعَ منهُ. لَقَدْ باتَتْ تَعرِفُهُ الآنَ. فَهوَ لَنْ يَستَطيعَ أبدًا صناعَةَ إناءٍ يَراهُ جميلًا كِفايَةً، وَلَنْ يَجِدَ أبدًا وَقتًا لَها...

لم يُسعف الجوابُ ألبرت. وَقَفَ هناكَ حائرًا وأدركَ أنَّ الحَقيقَةَ تَتَدَفَّقُ مِن كَلِماتِ صوفيّا.

– لديكِ الطّفلان، قالَ آخرَ الأمرِ. ما يعني أنّك لَستِ وحيدَةً. طبعًا لم يجدُر بهِ أن يقولَ ما قالَه، وإلّا ما استُدْرِجَتْ صوفيّا لِتُرُدَّ بما ردّت بهِ.

– الطِّفلان، زَمجَرَتْ، وكيف هيَ صُحبَتُهُما في رَأيكَ؟ إنَّهُما لا يسبّبان سوى الإزعاجِ أغلَبَ الوَقْتِ...

لَمْ تَعنِ إطلاقًا ما قالَتْهُ – ما مِنْ أُمٍّ تَعني شَيئًا كهَذا – وَنَدِمَتْ فَورًا. صوفيّا الفَخورَةُ جِدًّا والسَّعيدَةُ جِدًّا بِطِفلَيها. لَمْ تَقُلْ ذلكَ إلّا لأنَّ الهواجسَ المُرهِقةَ غَلَبَتْها لِلَحظَةٍ. لاحَت الكآبةُ على ألبرت، ولَمْ يَقُلْ أيٌّ مِنْهُما أَكْثَرَ مِمّا قالاه!

لامَت صوفيّا نَفسَها بِقَسْوَةٍ، لَم تَنسَ ما تفوّهت بهِ، وتملّكتها قناعةٌ كاملةٌ بأنَّ كُلَّ ما تَلا مِن أحداثٍ كانَ عِقابًا لَها على تِلكَ الكلِماتِ الرَّعناءِ.

٢

علَى مَرمَى حَجَرٍ مِنَ القَريَةِ كانَت هناكَ تَلَّةٌ خَضراءُ جميلَةٌ. يراها المرءُ أينَما سارَ، كما لو أنَّ القَريَةَ تستريحُ في حضنِها.

على التلّة نَمَتْ شَجَرَةُ تُفّاحٍ عَتِيْقَةٌ، جذَبَتْ أنظارَ الجميعِ إلَيها؛ اشرأَبَّتْ في الربيعِ والصَّيفِ والخَريفِ والشِّتاءِ نَحوَ السَّماءِ، اخضَرَّتْ، وأزْهَرَتْ وناءتْ بِثمارِها أو انتَصَبَتْ بأغصانٍ سوداءَ عارِيَةٍ. رَنا المَرءُ دائمًا إلى الأعلى هناكَ وهو يفكّرُ في أنّ ذلكَ المَكانَ يوحي بالدّعَةِ.

ومَعَ ذلكَ ثمّة من قالَ إنّ التلّةَ تلكَ مكانٌ فظيعٌ. ففي يومٍ ما كانَت مَكَبَّ نفاياتٍ وموضِعًا للشَّنْقِ يُساقُ المُجرِمونَ إلَيهِ لِيواجِهوا مَصيرَهم. وأُشيعَ أنَّ عَدَدَ المُجرِمينَ الذينَ لاقَوا حَتْفَهُمْ عِنْدَ «رِبْوَةِ الجَلّادِ»، كما سُمِّيَتْ، يُساوي عَددَ التُّفاحِ الذي حَمَلَتْهُ الشَّجَرَةُ؛ الشجرةُ التي انتَصَبَتْ هناكَ مُثقَلَةً بِفاكِهَةٍ حمراءَ وَضّاءة، لم يُفلح أحدٌ قطّ في عَدِّها.

لكنَّ مَذاقَ تُفّاحِها غايَةٌ في اللذَّةِ، وقَد مضى زَمَنٌ طويلٌ جدًّا جِدًّا، على العَهْدِ الذي كانت فيه التَّلَّةُ مَكَبَّ نفاياتٍ وموضِعًا للشَّنْقِ.

الآنَ هنالِكَ امرأةٌ تَسكُنُ المكانَ، ولا أحدَ في الواقعِ يدركُ مدَى ما تملكُه من جرأةٍ وقوّة إرادةٍ. كانَ بِمُستَطاعِ المَرءِ أن يَلْمَحَ كوخًا صغيراً في الأعلَى، تُواريهِ شَجَرَةُ التُّفّاحِ في ظِلِّها، وفي الليلِ يلمحُ المرءُ أَنْوارَهَ. وصاحبةُ الكوخِ

عجوزٌ عجيبةٌ، اسمُها أو تُدعى فلاكسا ميلْدْفَيْدَر، وهذا يعني «رفرفة الطقسِ المُعتدل». ويعودُ سببُ تسميَتِها بِـ «فلاكسا» إلى ظهورِها دومًا بمعطفٍ نِيلِيّ اللونِ يشبهُ البُرنُس، له ياقَة بيليرين، وهي ياقَةٌ عريضَةٌ تغطي الكتِفَينِ والمِرفَقَينِ، تقي من المطرِ والبردِ، وترفرف كَجناحَينِ كبيرَينِ حَولَ كَتِفَيْها. وتضعُ على رأسِها قُبَّعَةً لافِتَةً جِدًّا للانتِباهِ يتوسّطُ طرفَها المُطَرَّزَ بالزُّهورِ قمْعٌ بنَفْسَجِيٌّ طويلٌ مُوَشّى بِفَراشاتٍ.

أمّا اسمُ ميلدفَيدَر فهُو بكلِّ بساطةٍ يلمّح إلى أنّها كانَتْ تحلبُ معَها دومًا بشارةَ ظهورِ رياحٍ أكثرَ اعتدالًا. في الشّتاءِ لَم تَخرُجْ إلا لِمامًا، وقد تمرّ عِدَّةُ أسابيعُ من غير أنْ يَراها أَحَدٌ. ثم تظهرُ فجأةً، تَنزِلُ التَّلَّةَ مُرَفْرِفَةً بِمعطَفِها العَجيبِ وَقُبَّعَتِها المُطرّزةِ بالزُّهُورِ، فَيَعرِفُ الجميعُ عِندَئذٍ أنَّ طَقْسًا لطيفًا في طريقِهِ إلَيهِم. حَتّى وإنْ كانتْ دَرَجَةُ الحرارةِ ثلاثينَ تحتَ الصِّفرِ والثَّلجُ متراكمٌ، إذا ما جاءتْ فلاكسا ميلدفَيدر، يَذوبُ الثَّلجُ في اليومِ التّالي. والنّاس في الجِوارِ اعتَبَروها أصدَقَ علاماتِ الرَّبيعِ.

نَعَم، عَجيبَةٌ مِنْ شَتّى النَّواحي تلكَ الـ فلاكْسا. كانَتْ تَقرأُ الطّالِعَ أيضًا. لا في وَرَقِ اللَّعِب، فهي تَمقُتُهُ، بَل تقرأ الطَّالعَ في الكَفِّ أو في فنجانِ القَهوَةِ. وكَم غالَبَ كثيرونَ رَهبَةَ تِلكَ الرَّبوَةِ كي يَتَسَلَّلوا في جُنْحِ الظلامِ صاعِدِينَ إليها لِمَعرِفَةِ أَقْدارِهِم.

لكِنَّ قراءَةَ الطّالِعِ لَمْ تَكُنْ مَهَمَّتَها في الحَياةِ، وَإنَّما النَّسْجُ. نسجُ السَّجّادَ. وأَشْكالُ سَجّادِها من ابتِكارِها هيَ نَفسِها، ولهذا حِكايَةٌ خاصَّةٌ. فَهناكَ حيثُ تجلسُ إلى نَوْلِها أيّامًا، تستغرقُ قليلًا في التفكيرِ في أحوالِ النّاسِ والحياةِ في

القَريَةِ. وفي أحَدِ الأيّامِ اكتَشَفَتْ أنَّها تعرف ما سيَحدُثُ لَهُم. رَأَت ذلكَ في شَكْلِ السَّجّادَةِ الذي تَكَوَّنَ وَتشكّلَ بَينَ يَدَيها. فلبثَت في مكانها تَنظُرُ إلى المُستَقبَلِ، كأنّما هي عاكِفةٌ على قراءةِ كتابٍ في غايةِ الوضوحِ والشفافيةِ إلى درجة أنّها تابَعت بسهولةٍ تفاصيلَ أحداثِه.

رأَتْ أنَّ كلَّ ذلكَ هو كما يَنبغي أن يكونَ. فَمثلُ هذهِ الأشيَاء لَم تُثِر دهشةَ فلاكسا ولا عجبَها. بلَ كيفَ تعجَب إذا تسنّى لَها أن تَرى أنماطَ المُستقبلِ في سجادِها، مَا دامَ في وسعِها أنْ تجلسَ وتَستَطلعَ الأحداثَ الآتيةَ مِن خِلال تتبّعِ خُطوطِ راحةِ المرءِ، أو التَّحديقِ في فَناجين القهوةِ. وعلى هذا النحو أصبَحت تعرفُ فوراً كيفَ سيظهرُ نسيج السَجّادَةِ التي تَعمَلُ عَليها. وهكَذا أغنَى الأمرانِ أحَدهما الآخَر؛ تَزامَنَ النَّسْجُ مَعَ قِراءَةِ الطّالِعِ وَصارا وَجْهَيْنِ للشَّيءِ ذاتِه.

أمّا مِنْ أيّ نَبْعٍ سِرّيٍّ نَهَلَتْ مَعرِفَتَها بِأَقدارِ البَشَرْ، فهذا ما لَمْ تَبُحْ بِهِ قطُّ. رُبَّما هيَ نَفسُها لَمْ تَعرِفْ. على أَيّ حالٍ، لَمْ يَختَلِفْ أحدٌ في القَرْيَةِ مَعَ فلاكسا ميلدفَيدَر.

ولا بُدَّ مِنَ القولِ إنَّها لا نَسَجَتْ ولا قَرأَت الطّالِعَ مِنْ أَجلِ المالِ. فقَدْ نالَتْ قُوتَ يَومِها، ولَمْ تَهتَمَّ بِما هُو أكثَرُ.

وعلى الرَّغم من مُداومتِها الجلوسَ أمامَ نَوْلِها، كان عدَدُ ما تنجزُه من السَّجّادِ قليلًا فعلًا. بَيْدَ أنَّ المكتملَ منه تميّزَ دومًا بالجمالِ والفرادةِ. وفي مواسِمِ السوقِ تجلسُ في خَيمَتِها تَقرأُ الطّالِعَ، وسجادُها مُعَلَّقٌ للعَرْضِ خارِجَ تلك الخَيمَةِ.

أمّا الحَديثُ عَنْ عينَيْ فلاكسا ميلدفَيدَر فيَطولُ، إذْ كانتا تَتَغَيَّرانِ باستمرارٍ

ولَهُما سَطوَةٌ على النّاسِ. أَشَدُّ ما أثارَ العَجَبَ فيهِما رِقَّتُهُما، فَهُما أشبَهُ بزَهرَتَين. ورقّتهُما الظَّاهِرةُ لا تَعني بأيّ حالٍ أنهُما لَيْستا خطيرتين. ويمكن القولُ إنها تَحَكَّمَتْ بالعالَمِ والنّاسِ بنَظْرَةٍ زرقاء كزرقةِ الفيرونيكا، تلكَ الزَّهرَةِ الصغيرَةِ الهَشَّةِ التي يعثرُ عَليها المرءُ بين الأعشابِ في شهرِ تمّوز. هكذا كانتْ عَينا فلاكسا ميلدْفَيدَر.

نعم، كانَتْ إنسانَةً غيرَ عاديَّةٍ...

مِنْ عادَةِ النّاسِ في الرّيفِ أنْ يُربّوا القِطَطَ في بيوتِهم، أو الكلابَ. أمّا فلاكسا ميلدْفَيدَر فكانَ لَدَيْها غُرابٌ أَسْحَمٌ حالكُ السَّوادِ اسْمُهُ كْلُوكَةْ، ومعناه الحكيمُ الفطِن. لا أحدَ يعرفُ مِن أينَ حَصَلَتْ عَلَيْهِ، وإن كانَتْ اصْطادته بنَفسِها أمْ لا. وقَد رافَقها هَذا الغرابُ دَومًا، واتَّسمَ بغرابةٍ بالغة.

كانَ يستَطيعُ الكلامُ. ولَمْ يَتَكَلَّمْ هَذْرًا. يجيبُ إذا خاطَبه أحدٌ إجاباتٍ رَزينَةً؛ هذا إذا رَغِبَ في الإجابَةِ. وقد يحدثُ أحيانًا ألاّ يرغبَ بسببِ مزاجِهِ المتقلّبِ نَوعًا ما. وأحيانًا تَأتي عباراتُه ملغزةً، بحَيثُ لا يَفْهَمْ عامَّةُ النّاسِ شيئًا مِنْ كلامِهِ. أما فلاكسا فلَم يتعذّر عليها فهمُه مطلقًا.

مُنذُ زَمَنٍ وكْلُوكة أعْوَر. سَرَتْ إشاعَةٌ غريبَةٌ تقولُ أنَّ إحدَى عَينَيهِ سَقَطَتْ في بئرِ الحِكْمَةِ. وقد أَهَمَّ هَذا فلاكسا، لا لأنَّه مِن الصَّعبِ على كْلُوكة أن يتَدَبَّرَ أمرَهُ بعَينٍ واحدة، إذ سارَ الأمرُ على ما يرامُ، ولكنَّ بسببِ التغيّرِ الذي طَرأ على تَصَرُّفاتِهِ. ما أهمّها هو أنّه لا بُدَّ من أن يمتلكَ الغرابُ الأسْحَمُ عينينِ، خصوصًا إذا كانَ غُرابًا مثلَ كلوكة، وهذا مَفهومٌ إلى حَدٍّ ما.

على أنَّ لعينَيهِ مَيّزاتٍ مُختلِفَةً.

فإحداهُما عَيْنُ النَّهارِ. بِها رأى الشَّمسَ وكُلَّ ما أَخَذَ لَونَهُ مِنَ الشَّمسِ. رأى الألوانَ الفاتِحَةَ والدّافِئَةَ. رأى السّعادَةَ في الحياةِ، البَسماتِ والضَّحِكاتِ، والأفكارَ البَهيجَةَ، والخَيرَ. توغّلت تلكَ العَينُ بَعيدًا في المُستَقبَلِ، رَأَتْ ما في طريقِهِ إلى الحدوثِ.

وبالعَينِ الثّانيَةِ التي كانَتْ عَينَ الليلِ، رَأى كُلَّ ما لَوَّنَهُ القَمَرُ. الألوانَ الدّاكِنَةَ والباردَةَ. رَأى الظِّلالَ والحُزنَ، والأفكارَ الكئيبَةَ، والقُبْحَ والشَّرَ. وهذهِ العينُ رأَتْ ما ولّى مِنَ الزَّمَنْ، وَغاصت نَظْرَتُها بَعيدًا في أعماقِ الماضي السَّحيقِ.

كانت العَينُ التي فَقَدَها كْلُوكة عَينَ الليلِ، عينَ القَمَرِ، عينَ المَاضي السَّحيقِ. عينَ الشِّرِّ، كما أُطلِقَ عَلَيها أَيضًا. ولَقَدْ غَيَّرَهُ ذلكَ حَقًّا. صارَت

نظرتُه إلى الحياةِ قِرمِزيةَ اللونِ. ما عادَ في وسعِهِ أن يُدرِكَ شيئًا سِوى السّعادَةِ والخَيرِ. ولم يعدْ قادرًا على رؤية ظِلٍّ واحِدٍ. ولا حَتّى ظلَّهُ هو نَفسُهُ. وقَد يتساءلُ المرءُ ما إذا كانَ قَدْ رأى نَفسَهُ مَرَّةً، لِشِدَّةِ سَوادِهِ. المهمُّ أن هذا كُلُّهُ جعلهُ هانِئَ البالِ. ومع أنّ ذلكَ لا يليقُ به حقًّا، لَمْ تَكن لَهُ حيلَةٌ في الأمرِ. وقَدْ استوعبَت فلاكسا ذلكَ.

وأيضًا اعتبرَت الأمرَ أَهوَنَ الشَّرَّيْنِ؛ أمرَ احتفاظِه بعَينِ الخَيرِ. وإلا لتراءَت له الحياةُ بأكمَلِها سوداءَ. ومِن جِهَةٍ أُخرى تساءلَتْ في سرّها إذا ما كان كْلُوكَة اسمًا على مُسَمّى.

إنَّهُ لَجَميلٌ أنْ يرى المرءُ الجوانِبَ المُضيئةَ في الحياةِ، بالتَّأكيدِ، ولكنَّ الحكيمَ الحَقَّ هو في الواقع مَن يرى الجوانِبَ المُعتِمَةَ كذلك.

وقَدْ تبدّى لها في واقعِ الأمرِ أنَّ هذا جعلَ كْلُوكة سَطْحيًّا قليلًا.

٣

حانَ موعِدُ سوقِ الخَريفِ في بْليكَريدْ وغَدَت الطُّرُقُ مُزدَحِمَةً بالنّاسِ. جاءَ كثيرونَ مِن أماكِنَ نائيَةٍ راكِبينَ العَرَباتِ، وآخرونَ جاؤوا سَيراً على الأقدامِ ساحِبينَ عَرَباتِهِم.

أقبلَ الغَجرُ مُسرِعينَ، بِبَهاءِ مَنظَرِهِمْ وشَعرهم المُجعّد المُتطايرِ وعيونِهِمُ اللامعة. رَدَّدَت الطُّرُقُ أصداءَ الأصواتِ الغريبَةِ المرافقةِ لهُم وقد جاؤوا بالمُوسيقى والألْعابِ، بينَما تطَايرت تَنانيرُ نسائِهِم البرّاقةُ، وجَلْجَلَتْ زِينَتُهُنّ.

سَعى الجَميعُ إلَيهِم مُستأنسين يَحدُوهم أملُ الاسْتمتاع بِوقتِهِم.

جَلَسَتْ صوفيّا إلى جانبِ ألبرت في مقعَدِ الحُوذيّ وكلاس في حُضنِها وكلارا بينَهُما. مضَت بِهِم العربةُ على مهلٍ، واستَمتَعوا بالرِّحلَةِ.

كانَ الصَّباحُ رائقًا خَفيفَ البُرودَةِ، حامَتْ الشَّمسُ بَينَ قِمَمِ الصَّنوبَرِ البَرّيّ مِن غيْرِ أنْ تُدَفِّئ أَحَدًا لأنّهم في الخريفِ. تناثر زَغَبُ زَهرِ الشَّوكِ على الطَّريقِ وكالسِّحرِ فَعَمَ الهواءَ بِفِضَّتِهِ. مكتبة ياسمين

تبادلَ ألبرت وصوفيّا الابتسامَ وضحِكا.

استأجرَ ألبرت في السوقِ دُكّانًا ذا سَقفٍ لَوحِيّ. تَشارَكه كالمعتادِ مَعَ نافِخِ زُجاجٍ آخَر. وها قَدْ صَفَّ زُجاجَهُ. وعلى الرّغم من أنَّ زجاجَه أجمَلُ مِنْ زُجاجِ شريكِهِ، لَمْ يَعُد عَليه هذا بكثيرٍ من الفائدةِ، لأن الرجلَ الآخَر فاقَه مهارةً في

البيعِ، وأتقنَ صَنعَةَ الكلامِ، وشَرَعَ يبيعُ بضاعَته على قَدَمٍ وساقٍ.

وهكذا جَرى الأمرُ كما يجري دائمًا؛ يُملّي النّاسُ أعينَهم طويلًا من زُجاجِ ألبرت ولكنَّهُم يشترونَ مِن جارِهِ. كَأنَّ الأمرَ مُدبّرٌ مُسبقًا. وكادَ ألبرت يَفقِدُ صوابَهُ. صوفيّا التي تَحَرَّقَتْ شوقًا في الصباحِ ما فتئ لونُها يبهتُ أَكثَرَ فَأَكثَرَ.

ما فائدَةُ ذلكَ السَّعيِ، وصناعَةِ أجمَلِ الأواني حينَ لا يُريدُها أَحَد؟

كيفَ سَتَنتَهي بِهِمُ الحالُ؟

فالعَرَبَةُ اضطُرّوا إلى استعارَتِها، والدُّكّانُ استأجروهُ بمالٍ عَزيزٍ! وما مِنْ قِطْعَةٍ واحِدَةٍ مِنَ الآنِيَةِ بيعَتْ! لا أَحَدَ استَبْدَلَ الزُّجاجَ حتّى. لقد ذهبَ اليومُ هباءً.

مَضى مِنَ العَصرِ أغلَبُهُ. لَمْ يَكنْ بِمَقْدورِهِمْ تَحَمُّلُ تكاليفِ المَبيتِ. عليهِمْ أن يعودوا بعدَ قليلٍ، بِوفاضٍ خالٍ، إلى البَيتِ.

بَدَأَ الطِّفلانِ يَتَمَلْمَلانِ. كانَت كلارا قد جرَت في السوقِ ولعبَت مَعَ الأطفالِ الآخَرينَ، ثم هَدأت واستكانَت إلى جانبِ كلاس في الدكّانِ. جلسا وادِعَيْنِ، وما مِنْ بأسٍ علَيهِما، ولكِنَّ عَدوى قَلَقِ أَبَوَيْهِما أصابَتْهُما. تابَعا ما يَجري بعُيونٍ متّسعةٍ ولاحَ عليهما الخَوفُ.

ثمَّ، وَبِلَمْحِ البَصَرِ، تَغَيَّرَ كُلُّ شَيءٍ.

أقبلَ رجلٌ يقطعُ السُّوقَ سيراً على الأقدامِ. كانَ شَخصًا وَقُورًا، بدا ذلكَ واضحًا مِنْ سِماتِهِ؛ مِن الملابسِ، والمِشْيَةِ، والحَركاتِ. وبِرِفْقَتِهِ حُوذِيٌّ مُسِنٌّ حرصَ علَى أَن يفسحَ لهُ الطَّريق بَينَ حَشْدِ النّاسِ. سارا على مَهَلٍ وَلَمْ يُكَلِّما أَحَدًا. وَلَمْ يَبتاعا شَيئًا.

ثُمَّ وَصلا إلى دُكّانِ ألبرت. مرّ الحُوذِي من غير أن يتوقّفَ هناك، بيدَ أنَّ

الرَّجُلَ الوَقورَ وقفَ ونادى على الحوُذِيّ. وبعكازةٍ معهُ بَدَأَ يُشيرُ إلى الزُّجاجِ قِطْعَةً تلوَ أخرى، ثُمَّ أومَأَ مُعطِيًا إشارَةً، هي أمرٌ موجزٌ للحُوذِيّ، فتقدّمَ الأخيرُ نحوَ ألبرت في الحالِ، وَطَلَبَ شراءَ ما أرادَ سَيِّدُهُ.

في غُضونِ ذلكَ وَقَفَ الرَّجُلُ الوَقُورُ يتأمّلُ كلاس وكلارا. كانَ شابًّا إلى حَدٍّ ما، لولا أنّ وَجْهَهُ عبوسٌ تَعوزُهُ البَشاشَةُ. بَدا مُهتمًّا بالطِّفلَينِ، إلا أنَّه لَمْ يَبْتَسِمْ مَرَّةً واحدةً.

دَفَعَ الحُوذِيُّ نُقُودًا كثيرَةً لامِعَةً، حَفْنَةً بِأَكمَلِها، وحينَ أرادَ ألبرت ردَّ البَاقي، لَوَّحَ السَّيِّدُ بِيَدِهِ ناهِرًا. ثُمَّ غادَرا، ومن غير أنْ يَدْري، كانَ الرَّجُلُ الثَّرِيُّ قَدْ قامَ بِفِعْلِ الخَيرِ، ولَمْ يَتَبادَلْ كَلِمَةً واحِدَةً مَعَ ألبرت.

وما هَمُّ ألبرت في ذلكَ! لَقَدْ أُنقِذوا الآنَ. باعوا في بُرهَةٍ وَجيزَةٍ أكثَرَ مِمّا كانوا يحلُمونَ بِبَيعِهِ يَومًا.

تبادَلوا النّظراتِ، وألبرت مأخوذٌ بِشُعورِهِ بالتَّرَفِ.

الآنَ سَيستَمتِعونَ!

سَيُغلِقونَ الدُّكّانَ لذلكَ اليومِ ويَقْصِدُونَ نُزُلًا لينام الطِّفلانِ. وبعدَئذٍ يَخرُجُ ألبرت وصوفيّا إلى السُّوقِ ليروّحا بِدَورِهِما عَن نَفسَيْهِما. فَمِنْ حَقِّهِما أنْ يُسرِفا قليلًا ولو لِمَرَّةٍ.

فذلكَ لا يحدُثُ كَثيراً...

أَكانَ ألبرت يَعني ما يَقولُ؟ تَرَدَّدَت صوفيّا قليلًا، إلا أنَّ الورودَ سُرعانَ ما عادَتْ تُضرِّجُ وَجنَتَيها.

– أتَظُنُّ أننا قد نَجِدُ مكانًا في النُّزُلِ؟ سألَتْهُ.

– اِذهَبي حالًا وَخُذي الطِّفلَينِ مَعَكِ، قالَ ألبرت، حتّى أُرَتِّبَ المكانَ هُنا وأُوافيكُم.

كان الظّلام قد حلَّ. أُضيئَتْ القناديلُ في الدَّكاكِينِ والتَهَبَتْ شُعلَةُ السُّوقِ في منطقةِ الاحتِفالاتِ.

وَقفا بيْنَ النّاسِ، ألبرت وصوفيّا، في شارِعِ السُّوقِ. حُرّانِ لا يشغَلُهُما شاغِلٌ، ثمَّ قالَ ألبرت:

– لكِ عِندي هَدِيَّةٌ مِنَ السُّوقِ، صوفيّا.

– أُوه لا، هتفت صوفيّا وتضرّجت بالحُمرةِ.

– بَل بَلى، قالَ ألبرت.

رأيا أنَّ علَيهِما أوَّلًا أن يشتَرِيا شيئًا للْطِفلَينِ النّائمَينِ في النُّزُلِ. فاشتَرَيا حَلْوى وقُبقابَينِ لِنَفسَيْهِما وَحِصانًا خَشَبِيًّا لِكْلاس وَدُمْيَةً صَغيرَةً مِنْ قُماشٍ لِكلارا. كانَتْ الدّميةُ تَرتَدي قَميصًا وتنّورَةً بمئزرٍ وعلى رأسِها وشاحٌ.

ولكِنْ ماذا عَن صوفيّا؟ ما الذي أرادَتْ أن تَحصُلَ عَلَيهِ؟ لَمْ تَعرِفْ تَمامًا... شالٌ مُوَرَّدٌ؟

لا، فالقَديمُ يَفي بالغرضِ. يَجِبُ أن يَكونَ شيئًا لَمْ تَمتَلِكْهُ مِن قَبْلُ.

قارورَةٌ صغيرَةٌ مِنَ العطرِ رُبَّما؟ تلكَ هَدِيَّةٌ ذاتُ قيمَةٍ، فَكَّرَ ألبرت.

أُوه لا، يا للحماقَةِ، ضَحِكَتْ صوفيّا.

حسنًا، لَقَدْ أُسقِطَ في يَدِهِ...

جلَسَ رَجُلٌ ضئيلُ الحجمِ طاعنٌ في السنّ، جدُّ طاعنٌ في السنّ حَقًّا، عِندَ كُشْكٍ يبيعُ أدوات الزِّينَةَ. لَمْ يَكُنْ لَدَيهِ الكثيرُ، وكشكهُ يقومُ في ركنٍ منزوٍ.

مَرَّ ألبرت وصوفيّا عِدَّةَ مَرّاتٍ بِهِ بدُون أن يَتَوَقَّفا. لَم يَكُنْ لَدى الرجلِ المُسنِّ فانوسٌ، والدُّنيا غارقةٌ في العتمةِ. ولَمْ يُعيراه أدنَى اهتمام.

ثم بزغَ القمرُ، فكسَا الشيخَ وكُشْكَهُ بأنصَعِ النُّورِ. ولمّا مَرَّ ألبرت وصوفيّا ثانِيَةً بِهِ رأياهُ يَقِفُ حاملًا خاتَمًا يَعرِضُهُ عَلَيْهِما.

– أتُريدينَ خاتَمًا؟ قالَ ألبرْت وتَقَدَّمَ خُطوَةً منَ الكُشكِ.

أمسَكَتْ صوفيّا بِهِ. خاتَمٌ...

سيكونُ باهِظَ الثَّمَنِ، يا ألبرت.

وَقَفَ الشيخُ بِلا حراكٍ. كان قصيرًا على نحو خطيرٍ، أقرَب إلى قَزَمٍ، وبَدا كأنّهُ مُشعوذٌ حقيقيٌّ. قَبَعَتْ عيناهُ كَفَحمَتَينِ في وَجهِهِ، وامتزجَ شَعرُ رأسِهِ بِلحيَتِهِ عاكسًا لونًا أزرقَ تحتَ نورِ القَمَرِ. لَمْ يَقُلْ كَلِمَةً واحدةً، بَلْ عرضَ الخاتَمَ فَقَط.

وَقَعَتْ نَظراتُ صوفيّا عَلَيْهِ. وعلى الفَورِ شعرَت كَما لَو أنّها تَمَنَّت هذا الخاتَمَ تَحديدًا طوالَ حياتِها مِن غيْرِ أن تُدرِكَ ذلكَ. أَسَرَتْها رَغبَةٌ جامِحَةٌ فيهِ. ولاحظَ ألبرت ذلِكَ.

– يُمكِنُنا أن نَسألَ عَنْ سِعرِهِ، قالَ.

سَرَتْ رَعشَةٌ في صوفيّا. اجتاحها شيءٌ من الخوف من ذاكَ الشيخِ، إلا أنّها مشَت في أعقابِ ألبرت.

لَمْ يُجِب الشيخُ لمّا سألَه ألبرت عن سعرِ الخاتمِ. أخذَ يَدَ صوفيّا وألبَسَها الخاتَمَ في إصبعِها المُرتَجِف. جاءَ مناسبًا تمامًا.

كانَ خاتَمًا فِضّيًّا ثقيلًا ذا حَجَرٍ داكِنٍ مُتَقَلِّبِ الخُضرةِ، ولِبَريقِهِ سطْوَةٌ على

النَّفس. تَسَمَّرَتْ صوفيّا وضمَّت كفّيها. ولمّا سألَها ألبرت شيئًا، لَمْ تَقوَ على النُطْقِ بشيءٍ. وَقَفَتْ هناكَ تحتَ نورِ القَمرِ، ونظراتُها تغوصُ في أعماقِ الحَجَرِ اللامِعَةِ كما لو أنَّها تَغرَقُ في عَينٍ. رأَت الحَجَرَ يبادلُها النّظرَ. سَكَنَ الزَّمَن.

– أتُريدينَه؟ سَأَلَ ألبرت ثانِيَةً بنبرةٍ تنمّ عن الفرحِ. في تلكَ الأثناءِ كان قَد اتَّفقَ على السِّعرِ مَعَ الشيخِ، وصارَ في وسعِهُما الحصولُ على الخاتَمِ.

– شُكرًا يا ألبرت، تَنَهَّدَتْ صوفيّا مُجيبَةً.

واحتفظَت بالخاتَمِ في إصبَعِها. دَفَعَ ألبرت ثمنَه ثُمَّ ذَهَبا. لَمْ يَكُنْ لَدَيهِما

شُغْلٌ هناكَ، فتجوّلا في السُّوقِ مُستَمْتِعَيْنِ. وحينَ عَادا إلى حيثُ وَقَفَ الشيخُ اكتشفا أنّه قد اختفَى هو وكُشْكُهُ. وفي تلكَ الآونةِ انزلَقَ القَمَرُ خَلفَ الغابَةِ. وكأنَّ ثُقبًا أسودَ حَلَّ مَحلَّهُ.

ارتَعَدَتْ صوفيّا وَسَحَبَتْ ألبرت مَعَها إلى مَقرِّ الاحتفالاتِ.

٤

جاءَتْ فلاكسا ميلدفَيدر إلى السوقِ كالعادَةِ وَنَصَبَتْ خَيمَتَها. كانت قَدْ جَلَبَتْ مَعها عِدَّةَ سَجّاداتٍ بألوانٍ داكنةٍ وَجَميلَةٍ، عَلَّقَتْها على منَصَّةِ عَرْضٍ خارِجَ الخيمَةِ.

جلسَ الغُرابُ كْلُوكَة هذهِ المَرَّة في قَفَصٍ. وَعُلِّقَ القَفَصُ القَديمُ المَطْلِيُّ بلَونِ الذَّهَبِ في مَدخَلِ الخَيمَةِ. وعِندَما توافدَ النّاسُ على الخيمةِ ارتطمَ مُعظَمهم بالقَفَصِ، وهَذا جعلَه يَتَأَرجَحُ. وَقَدْ راقَ ذلكَ لِكْلُوكَة الذي بادرَ عندَئذٍ إلى تَقديمَ نَفسِه بالقَولِ:

– أنا كْلُوكة، الغُرابُ الأسحَمُ الأسودُ، الذي يُجيبُ بِحِكمَةٍ تَفُوقُ حِكمَةَ ما يَسألُهُ النّاس.

أثارَ هذا غَضبَ بَعْض الزّوارِ وَرأَوا أنَّ الغُرابَ يَتَبَجَّحَ، وبَعْضهم اعتبَره ظَريفًا، بيد أنَّ أغلبَهم أَخَذَتْهُ الرَّهبَةُ منهُ.

لم تحبّذ فلاكسا ميلدفَيْدَر تصرّفَ غرابِها، بدا لها أنّهُ ليس تصرّفًا لائقًا. ففي الأحوالِ العاديةِ لَم يَكُنْ ليفعلَ ذلك، إلا أنَّها تعلمُ أنَّ الأمرَ مُرتَبِطٌ بِعَوَرِه. لذلكَ قالَتْ لَهُ، إنَّهُ ليسَ حَكيمًا كَما يَتراءَى لهُ، بل هو في الواقع ينظرُ إلى الأمورِ بِسطحيةٍ.

لم يَنْفعِل الغرابُ ممّا قالته، وأجابَها بِهُدوء:

– نادِرٌ فَرَحُ الحَكيم. وحكمَةُ العاقِلِ بِقَدرٍ.

عندَئذٍ تَنَهَّدَتْ فلاكسا، لأنَّ تلكَ الكلماتِ تضمّنَت الحَقيقة، وقد تأكّدَت مِن هَذا في ذلكَ اليَوم. انبَرَت تُحدّق مِرارًا وتَكرارًا في خُطوطِ السَّجّادَةِ التي انتَهَتْ مِنْ نسجِها قُبَيلَ بَدءِ السُّوقِ. وكُلّما أمعَنت في التحديقِ بَدا الهَمُّ والغَمُّ عَلَيها. راحَت تذرعُ المكانَ بِخُطى ثَقيلَةٍ وهي تَهُزُّ رأْسَها، حتّى تَمايَلَت الأزهارُ وأجنِحَةُ الفَراشاتِ بِحُزنٍ على قُبَّعَتِها.

ثَبَّتَ كْلوكةُ عَيْنَهُ عَلَيها:

– لا الخَوفُ ولا الشَّكوى مِنْ خَيرِ النَّصيحَة، قالَ واعِظًا.

– حَسَنًا، يا كْلُوكة، أجابَتْهُ عِندَئذٍ. بِماذا تَنصَحُني؟

– أَتراكِ أبْصَرتِ مُصيبةً في السَّجّادَة؟ سألَها الغُراب.

هَزَّتْ رأسَها إيجابًا مِن غَير أن تَنطِقَ.

– ما رأيتُه، قَدْ كَتَمتُهُ، قالَ كْلُوكة بِحَزْمٍ.

– وإذا جاءَت تَطلُبُ قِراءَةَ طالِعِها؟

– اِلتزمتُ الصّمتَ! أجابَ كْلُوكَة مُطْبِقًا عَينَهُ بِحِكمَةِ العارِفِ.

استَحَمَّ السّوقُ بأكمَلِهِ بِشعاعِ القَمَرِ، وترصّعتِ السَّماءُ بالنُّجومِ. بينَ حينٍ وحينٍ سقطَ شهابٌ، وتَمَنّى النّاس على إثرِه ما شَاؤوا.

– أتمنّى أن نُصبِحَ أغنياءَ! قالَتْ صوفيّا.

ولكنَّ ألبرت لَمْ يَتَمَنَّ شَيئًا. فَقَدْ رَأى أنَّهُمْ نالوا الكثيرَ في ذلكَ اليوم.

– أعني مِنْ أَجلِ الطِّفلَينِ، أضافَتْ صوفيّا. أريدُ أن يَعيشا حياةً أفضلَ مِن حياتِنا.

– نحنُ نعيشُ حياةً كريمةً، قالَ ألبرت بِهُدوءٍ.

لكِنَّ صوفيّا لَم تَكُنْ تُصغي إلَيه. وَتَمامًا مَعَ سُقوطِ شهابٍ قالَت:

– تَخَيّلْ كمْ سَتَبْدو كلارا حُلوَةً في الحريرِ وكلاس في المُخمَلِ؛ هذا ما أتمنّاهُ لَهُما! هَمَستْ وعيناها تلمَعان تحتَ وهج القَمَرِ.

مَرّا بِخَيمَةِ فلاكسا، فَتَوَقَّفَ ألبرت ينظُرُ إلى السَّجّادِ المُعَلَّقِ هُناكَ. وَقَفَ طويلًا يَتَأَمَّلُهُ. رأى أنَّهُ أجمَلَ مِن أيِّ وَقتٍ مَضى على الرّغم من أنّه قاتمٌ وغريبٌ. اعتصرَه شعورٌ مبهمٌ حيثُ يَقِفُ، كَأَنَّهُ مُقبِلٌ على مُصابٍ جَلَلٍ.

أمّا فلاكسا ميلدفيدر نفسُها فَلَم تَظهَرْ. قبعَ الغرابُ كْلُوكة ساكِنًا في قَفَصِهِ. التَفَتَ ألبرت إلى صوفيّا. تساءلَ إن راوَدَها الشعورُ نَفسُه، سَجّادَةٌ بِعَينِها كانت السببَ وراءَ انقباضِ صَدْرِهِ.

لكنَّ صوفيّا لَمْ تَنظُرْ إطلاقًا إلى السَّجّادِ، بَلْ أُخِذت بألحانِ العازِفينَ في حلقَةِ الرَّقصِ عندَ مُفتَرَقِ الطَّريقِ.

خَطَتْ خُطوَةً راقصةً وابتَسَمَتْ.

– أظُنُّ أنني سأسألُ عَنْ طالِعي يا ألبرت، قالَت.

– ألا تُريدينَ أن تَرْقُصي؟ استفسرَ ألبرت الذي أرادَ مُغادَرَةَ المَكانِ.

– لاحِقًا. بَعدَ قراءَةِ الطّالِعِ.

ثُمَّ دَخَلَتْ صوفيّا الخَيمَةَ. نَظَرَ كْلُوكَة إلَيْها ولَمْ يَنْبِسْ بِحَرْف. هناكَ في الدّاخِلِ جَلَسَتْ فلاكسا ميلدفيدر على مَقعَدٍ ثُلاثيّ السّيقانِ، وعلى الأرضِ إحدى سَجّاداتِها العجيبةِ. لَمْ يَرُقْ السَّجّادُ لِصوفيّا، فَقَدْ كانَ كَئيبًا.

جَلَسَتْ فلاكسا مُعتمرةً قُبَّعَتَها التي أخفَت طرفًا من وجهها، وياقةُ البَيلَّيرين

مُتهدّلةٌ علَى كَتفيها. كانتْ تُحَدّقُ إلى الأرضِ وَلَمْ تَرفَعْ بَصَرَها لمّا دخلَت صوفيّا.

– أريدُ أن تَقرأي لي طَالعي، قالَتْ صوفيّا.

– لَقَدْ بَصَّرْتُ بِما يَكفي لهذا اليَوم، أجابَتْ فلاكسا باقتِضابٍ.

– آه، هَمهَمت صوفيّا بخيبةِ أملٍ، كَمْ كنتُ أريدُ...

حامَتْ عينا الڤيرونيكا للحظَةٍ حولَ وجهِ صوفيّا، ثُمَّ أشاحَتا بعيدًا.

– لنْ يُفيدَ ذلكَ، قالَت فلاكسا. وبالمُناسَبَةِ، أنتِ لا تعرفينَ ما تريدينَ.

عندَئذٍ غَضِبَتْ صوفيّا. ظَنَّتْ أنَّ فلاكسا تُعامِلُها هكذا لأنَّهما مِنْ القَريَةِ نَفسِها، حيثُ رأت أنَّها لا تَحتاجُ إلى تَملّقِ أهلِ قَريَتِها، ولكنَّ صوفيّا رفَضت الرضوخَ، وسارعت إلى مدِّ يدِها بتحدٍّ.

– فَلْنَرَ الآنَ! هَيّا بَصِّري لي! قالَتْ.

تَظاهَرَتْ فلاكسا في البدايةِ أنَّها لا تَراها. ثُمَّ انتَفَضَتْ وحَدَّقَتْ بِسُرعَةٍ في الخاتَمِ الذي تضعهُ صوفيّا، فأَطبَقَتْ عَينَيها وَهَزَّتْ رأْسَها.

– لا! قالَتْ. لا، ثُمَّ لا!

تَركَتْ صوفيّا يَدَها تَهبطُ. شَعرت بالحزنِ والمهانَةِ. أرادَتْ الرَّدَّ بَيْدَ أنَّ الجَوابَ أعياها، ومع أنّها فَهمت فلاكسا جيدًا، عادَت مرّةً أُخرى وَثَبّتَت عَينيها الزّرقَاوين الزّائِغتين عَليها وهمَسَت:

– طِفلاي الحبيبانِ، قالت، طِفلاي الحبيبانِ فقَط...

ثمَّ أَطرقَتْ صوفيّا وقد بَدا لها أنَّ الأمرَ ليسَ كما ظَنَّت. الأرجَحُ أنَّ فلاكسا مُتْعَبَةٌ. اعتراها شيءٌ من الخجلِ ومضَت نَحوَ المَخرَجِ. مِن خَلفِها سَمِعَتْ فلاكسا تَقولُ بِصَوتٍ مُتأنٍ:

– إصبَعُكِ يَحمِلُ خاتَمًا يا صوفيّا. إذا أصابَتْكِ مُصيبَةٌ في أحدِ الأيّامِ، علَيكِ أن تُرسلي ليَ الخاتَمَ، وسأُساعِدُكِ أينَما كُنتِ. لا تَنسَيْ كلامِي! أرسلي ليَ الخاتَمَ.

توقّفت صوفيّا عِندَما قالَتْ فلاكسا ذلك. وَقفَتْ تَحتَ قَفَصِ كْلُوكة تمامًا. كانَ الغُرابُ قَدْ غَفا، فَعَينُهُ مُطبَقَة.

لَمْ تَجِدْ صوفيّا في نَفسِها رغبةً في الرَّقْصِ بَعدَ ما حدثَ. قصّت على ألبرت كُلَّ ما جَرى.

– أرادَتْ الحصولَ على خاتَمي، تَخَيَّل! قالَتْ بنبرةٍ ساخِطةٍ.

– أظنُّ الأمرَ أكثرَ مِن ذلكَ، قالَ ألبرت، فهذا لَيسَ مِنْ طَبْعِها. أعتَقِدُ أنني سأطلُبُ مِنها أن تقرأ لي طَالعي، ثُمَّ نَرى. فأنا ليسَ لَدَيَّ خاتَمٌ.

دَخَلَ الخَيمَةَ، وغابَ وقتًا طَويلًا. ذَهَبَتْ صوفيّا تستَمِعُ إلى الموسيقى في تلكَ الأثناءِ. عادَتْ لحظةَ خرجَ ألبرتْ تمامًا. خَرَجَ بِخُطىً واسِعَةٍ كأنَّهُ على عَجَلَةٍ هائلَةٍ من أمرِهِ.

وكان الغُرابُ كْلوكَة قد استيقظَ، وانبرى ينادي خَلفَهُ بِصَوتِهِ المبحوحِ:

– فَلْيُصدِّقْ مَنْ يُصَدِّق! ما هَمَّني ذلكَ!

– ما الأمرُ، ألبرت؟ سألَتْه صوفيّا مُرتَعِبَةً.

– تعالي! أجابَ وجرّها معه، وطَفِقا يعدُوان تَقريبًا.

– هَل بَصَّرَتْ لَك؟

لَمْ يُجِبْ.

– ألبرت؟

لَمْ يشأ إلا أن يَمضيا في طريقِهما؛ أسرَعَ فأسرَعَ. أخيراً كَفَّتْ صوفيّا عن السُّؤال. ركضت صامِتَةً ومُذعِنةً إلى جانِبِه.

عندَما بَلَغا النُّزُلَ دفَعَ ألبرت بابَ الحُجْرَةِ الصَّغيرَةِ التي اسْتَأْجَرُوها. وبِلا أيّ كلمةٍ أسرعَ إلى الأريكَةِ التي ينامُ عليها الصَّغيران. بَدا عَنيفًا، ومالَ فَوْقَهُما هامِسًا:

– بُورِكَ اسمُ الرَّبُّ... بُورِكَ اسمُ الرَّبِ...

كانا مُستلقيين هناكَ نائمَين بِوَداعَةٍ. نَظَرَتْ صوفيّا بِقَلَقٍ إلَيْه.

– ماذا جَرى لَك؟ أَظَنَنْتَ أنَّ الطِّفلَيْنِ اختَفَيا؟

تحاشَى ألبرت الردَّ، وقالَ إنّه متعبٌ ويرغبُ في الذَهابِ إلى النَّوم حالًا. وأنَّ الأمرَ ليسَ أكثرَ من خاطرٍ خَطَرَ لَهُ، ولعلّ السَّبَبَ هو الغُرابُ وتلكَ

السَّجّاداتُ...

– إيهِ معكَ حقّ، قالَت صوفيّا، تلكَ السَّجّاداتُ مُخيفَةٌ بطريقةٍ ما.

وَضَعا الدُّميَةَ إلى جانبِ كلارا والحصانَ الخَشَبيَّ إلى جانب كلاس، ثُمَّ أَويا إلى الفراشِ. وَحدهُ ألبرت اضطَجَعَ يقِظًا لمُدّةٍ طويلَةٍ وبَقِيَ يَتَقَلَّبُ.

لَمْ تَكُنْ للحُجْرَةِ نافِذَةٌ بلْ كُوَّةٌ صَغيرَةٌ سمحَت لأشعة القمرِ بالتدفّقِ منها؛ قطعَت تلكَ الأشعةُ حبلَ الظُّلمَةَ، وانسابَت باردةً وزرقاء وعَديمَةَ الرَّحمَةِ. بقيت تتدفّقُ على هذا النحوِ إلى أن نَهَضَتْ صوفيّا وَغَطَّت الفَتحَةَ بتَنّورَتِها.

في فَجرِ اليومِ التالي استَيقَظَ ألبرت وحَزَمَ الأمتِعَةَ في العَرَبَةِ. تَركُوا بْليْكَرِيدْ قبلَ طُلوعِ الشَّمسِ، قبلَ أن يَشرَعَ النَّهارُ الجَديدُ في الظهورِ.

٥

تَغَيَّرَ ألبرت.

أصبحَ يلازمُ البيتَ أكثرَ مِن ذي قَبل، وما عادَ يذهبُ إلى المشغلِ أبدًا بعدَ هُبوطِ الظَّلام.

بَدا كَأَنَّهُ خائفٌ مِنْ أمْرٍ ما. حرصَ دائمًا على إقفالِ البابِ وإغلاقِ النّافِذةِ. ومع أدنَى صوتٍ غيرِ طَبيعِيٍّ يَنتَفِضُ، وإذا غابَ الطِّفلانِ عَنْ نَظَرِهِ يكادَ يَفقِدُ عَقلَهُ قَلَقًا.

أحيانًا قد يَعودُ على جَناحِ السُّرعَةِ مِن المَشغَلِ إلى البَيتِ في عزِّ النَّهارِ لا لِشَيءٍ إلا ليَطمَئِنَّ إلى أنَّ الأمورَ على ما يُرامُ.

وعندما يحدثُ أن تسألَه صوفيّا عَن سَبَبِ غَمِّهِ، يُجيبُ وهو يهزّ رأسَه بِأنَّ الأطفالَ الصِّغارَ مُعَرَّضونَ دَومًا لِكَثيرٍ مِنَ الأخطارِ المجهولَةِ، وأنَّ المَرءَ لا يستَطيعُ أبدًا أن يبلُغَ الكِفايَةَ في حمايَتِهِم أو في التزامِ الحَذَرِ بِشَأنِهِمْ.

أدركَتْ صوفيّا أنَّ القَلَقَ جاءَ بعدَ سوقِ الخَريفِ. إنَّما ماذا حَدَثَ هناكَ؟ لَقَد قصدَ فلاكسا ميلدفيدر لِقراءةِ طَالعِه. أَيُمكِنُ أن تَكونَ العَجوزُ قَدْ قالَتْ شيئًا أخافَهُ؟ هو يزعمُ أنَّها لَمْ تَفْعَلْ. قالَ إنَّها تحَدَّثَتْ قليلًا كما تَفعلُ العَرّافاتُ عادَةً. بَل ولا يكادُ يتذكّرُ ما قالَتْهُ. وفي جميعِ الأحوالِ هو ليسَ مِمَّن يَهتَمُّونَ بِكلامِ العَرّافاتِ.

كانَ ذلكَ ما قالَهُ ألبرت. لماذا إذًا تَصَرَّفَ بهذهِ الغرابَة؟ كثيرَةٌ الأسئلَةُ التي لَمْ تَحْصلْ صوفيّا على إجابَةٍ لها، وفي آخر المطافِ كفّت عَن طرحِ الأسئلة.

وَسَواء أَكانَ ألبرت قَدْ أصابَها بعَدوى قَلَقِهِ أمْ لا، هيَ الأُخرى لَمْ تَعُدْ تَشعُرُ بسعادَةٍ حَقيقيَّةٍ، مَعَ أنَّها حَصلَتْ على ذلكَ الخاتَمِ الجميلِ. كيفَ يمكنُ أن يصلَ بها الجحودُ إلى هذا الحَدّ؟ تَمَنَّتْ أحيانًا لو أنَّها لَمْ تَحْصل عليهِ. إذ ما نَفعهُ؟ كان الأَولى بِهما أن يَشترِيا شيئًا آخرَ مَعقولًا بِتلكَ النُّقُودِ.

كُلَّما تَحَتَّمَتْ بِهِ اعتراها الكربُ. والسَّبَبُ على الأرجَحِ أنَّها ليسِت مُعتادَةً على البَهْرَجَةِ. حَلِيٌّ كهذهِ لَيست للفُقراء. لقدْ أثقَلَ ذلكَ ضميرَها، حينَ فَكَّرَتْ في أنَّهُم كانوا يستطيعونَ شراءَ شيءٍ سميكٍ يُدفّئ الطِّفلَينِ بدَلًا مِنْهُ.

لَمْ يَدُر في خُلدها شيءٌ آخَر عَدا عَن أنَّ هذا هو السببُ الذي يجعلُها تَقلَقُ والخاتَمُ في إصبَعِها. وفي أَحَدِ الأيام فاضَ بها الكيلُ، فانتَزَعَتْ الخاتَمَ مِن إصبَعِها وَخَبَّأَتْهُ كَيْلا تَضعهُ ثانيةً أبَدًا. أصبَحَ الحالُ عندئذٍ أخفَّ وطأةً. ولَمْ يَلْحَظْ ألبرت شيئًا.

ثمَّ آنَ أوانُ خروجِ صوفيّا إلى المَزارِعِ لتُنَعِّمَ أليافَ الكَتّانَ كالعادَةِ. وتسنّى لها أن تفعلَ هذا لِحُسن الحظِّ. فَفي ذلكَ الخريفِ لم يَربح ألبرت الكثيرَ من عملهِ، فضلًا عَن أنَّ كوخَهم لَمْ يَكُن عامِرًا.

مَرَّ الشِّتاءُ طويلًا وباردًا ورَماديًّا، وحلَّ الرَّبيعُ أخيرًا، وبدا الحالُ كما لَو أنَّ كُلَّ شيءٍ تَنَفَّسَ الصُّعداءَ فورًا.

معَ انحسارِ العَتَمَةِ عَن الطَّبيعَةِ بَدَأَ ألبرت يعودُ إلى سابقِ عَهْدِهِ. لَمْ يَقْدِرْ على مُقاوَمَةِ الرَّبيعِ. غَدا العَمَلُ حَثيثًا في مَشغَلِهِ، بعدَ أن انخفَضت وتيرتُه طوالَ

فصلِ الشّتاءِ، وتوَجَّبَ عَلَيهِ أن يصنعَ زجاجًا كافيًا لِسوقِ الرَّبيعِ.

هذهِ المَرَّةَ أرادَ الذَّهابَ وحدَهُ. لَمْ تُجْدِ نَفْعًا مُحاولَةُ ثَنْيِهِ عَنْ عَزْمِهِ. قالَ إنَّ الطِّفلَيْنِ أَصغَرُ مِن أنْ يَصْطَحِبَهُما، فضلًا عن الكآبةِ البالغةِ التي اتّسمت بها آخرُ مَرَّةٍ ارتَادوا فيها السوقَ. خابَ أملُ صوفيّا وقد عَدمت أيّ حِيلة في إقناعِهِ، واضطرّت في النهاية إلى التَّغاضي عن الظلّمِ الذي لَحِقها.

حصَلَ ألبرت على تَوْصيلَةٍ مِن مُزارِعٍ نَوى بيعَ القَباقيبَ وَما إلى ذلكَ من أدوات خشبيةٍ. وهذه المرّة لم يحمِل معهُ من الزُّجاجِ ما زادَ عَنْ حُمُولَةِ عَرَبَةِ المُزارِعِ.

عَقَدَ النِّيَّةَ على المَبيتِ في بليكَريد، ثمّ العَودة في الصّباحِ التالي معَ المزارِعِ نفسِه. إذ قرّرا معًا ألاّ يَتَأَخَّرا في الرجوعِ إلى البَيتِ.

ولكِنَّ صوفيّا اضطرَّت إلى الانتظارِ طوالَ النَّهار. لَمْ يَعودا كَما سبقَ أن وَعَدا. ولَعلَّها جرَت مئَةَ مَرَّةٍ مُتَرقّبَةً ظُهورَهُما عِندَ مَفْرَقِ الطَّريقِ.

في النِّهايَةِ نهشَها القَلَقُ والغَضَبُ مَعًا، فغَفلَت عن حراسةِ الطِّفلَيْنِ، مع أن هذا كانَ آخرَ ما وَعَدَتْ بِهِ ألبرت.

طبعًا، لم يَكُنْ هنالكَ مِن بَأْسٍ على كلاس وكلارا. تَعَلَّمَ كلاس المَشيَ في الشّتاءِ وأصبَحَ ماهرًا فيهِ حَقًّا. أما كلارا فَقَدْ كانتْ أنضجَ مِنْ سِنّها.

وهكذا قادَتْ كلاس مِن يَدِهِ وَخَرَجا لِيعرِفا إلى أينَ كانت أمّهما تعاودُ الذَّهابَ جَرْيًا المَرَّةَ تلوَ المَرَّة. لَقَدْ طَلَبَتْ صوفيّا مِنهُما ألاّ يَبْرَحا الكُوخَ، إنّما ما الدّاعيَ لِأن يَبقيا وليسَ هناكَ أجمَل من الخروجِ؟ الشَّمسُ مُشرقَةٌ والطُّيورُ تُغَنّي، والعشبُ يانعُ الخُضرة. وهناكَ أمّهما تَمضي مبتعدةً متتبعةً الطّريقَ. لَحِقا بها إلى أن اختَفَتْ عندَ أَحَدِ المُنعَطَفاتِ.

عندَئذٍ قابَلا صَبِيَّتَينِ أَخْبَرَتاهُما أنَّه يمكنُ الحصولُ على الكثيرِ مِنَ النُّقودِ اليومَ، حينَ يَمُرُّ القادِمونَ مِنَ السُّوقِ راكِبينَ.

لَيسَ على المرءِ سوى الانطلاقِ إلى الغابَةِ وقَطْفِ الأزهارِ، ثمّ الوُقوفِ بَعدَئذٍ عندَ الطَّريقِ العريضَةِ حَيثُ تَمُرُّ العَرَباتُ. هناك ما عليهِ إلاّ أنْ يُلَوِّحَ بالأزهارِ لِيُقبِلَ النّاسُ ويشتروها، فالجَميعُ لَدَيْهِم الكثيرُ، الكثيرُ مِنَ النُّقودِ اليَومَ. ما أروع ذلكَ! فأبوهُما وأُمُّهُما في حاجَةٍ إلى النُّقودِ دائمًا!

أينَ الأزهارُ إذًا؟

نعم، الصَّبِيَّتانِ تَعرفان أيَن هِي. ويُمكن أنْ تَدُلّاهُما. فالغابَةُ تغصُّ بالأزهارِ. أزهارٌ من مختلفِ الأنواعِ.

وشَقائقُ النُّعمانِ أيضًا؟

نعم، نعم! بِكَثْرَةٍ.

سارَت الصَّبِيَّتانِ وكلاس وكلارا في أَعقابِهما. وكانَ كما قالَتا تمامًا. تألَّقَتْ شقائقُ النُّعمانِ البيضاءُ والزّرقاءُ مُضيئةً الغابَةَ، فَقَطَفوا باقاتٍ وافرةً منها.

لَمْ يحتاجوا بتاتًا إلى التَّوَغُّلِ، ولا خَوفَ أبَدًا مِنْ أنْ يَضِلّا طَريقَهُما كما يخشَى والِداهُما. فالصَّبِيَّتانِ تَعرِفانِ الطَّريقَ في كُلِّ مكانٍ.

ثُمَّ سَلكوا طريقًا مُخْتَصَرَةً عَبْرَ الغابَةِ نُزولًا إلى الطَّريقِ العَريضَةِ. وهناكَ طالعَهم ذلكَ المَشهَد! فَقَدْ سَبَقَهُم العديدُ مِنَ الأطفالِ إلى الوقوفِ على طولِ الطَّريقِ حامِلينَ باقاتٍ مِنَ الوَردِ يُلَوِّحونَ بِها للعابِرينَ في عرباتِهم.

كان العابِرون مِن المُزارِعينَ السُّعداءِ لأنّهم في طريقِ عودَتِهم إلى أهاليهِم، وكانوا كُرَماءَ أيضًا. وقَد درَجوا على شِراءِ باقاتٍ عدّة. بَيْد أنَّ كلاس وكلارا

كانا أصغَرَ مَن أَن يُلاحِظهما أحدٌ، على ما بَدا، أو أنَّ طريقَتَهما في التّلويحِ لَمْ تَكُنْ جَذّابَةً كطريقةِ الآخرينَ، فلا أحَدَ اشترى شيئًا منهما.

أمّا الصَّبِيَّتان فَباعَتا أزهارَهُما، وعاودتا الركضَ إلى الغابَةِ وَجَلَبَتا أزهارًا جديدَةً، إذ أنّ أُمورُهما سارَت في ذلكَ اليومِ سيراً حسنًا.

مضَى كلاس وكلارا أبْعَدَ قليلًا إلى أسفَلِ الطَّريقِ كي يَرَيا إنْ كانَ الحالُ أفضَلَ هناكَ. أخذَ التعبُ يَسري في ذراعِ كلاس فَأَفلَتَ بَعضَ أزهارِهِ في الطريقِ، هذا إلى جانبِ أنها بَدأتْ تَذْوي. معَ ذلكَ وَقَفا ينتَظِرانِ بإخلاصٍ. لَمْ يكُنْ مَلبَسُهُما فَخمًا، وبَدَيا أَشبَهَ بِصُرَّتَيْنِ صغيرَتَينِ تبرزُ مِنْهُما خُصَلٌ منَ الشَّعْرِ

وعُيونٌ زرقاءُ توّاقةٌ وفَمَانِ مستديرانِ فاغِران. بَدَت هيئَتُهُما مُضحِكَةً قليلًا وهما واقفانِ ينتَظِرانِ مُعْجِزَةً ما.

وجاءَتْ المُعجزَةُ أخيراً.

أَقبَلَتْ عَرَبَةٌ فَخمَةٌ، لا تُشبِهُ عَرَباتِ المُزارِعينَ بأحصِنتها المُكتنزةِ والوئيدَةِ. بَل عَرَبَةُ نُبَلاءٍ جميلَةٌ، يَجُرُّها فَرسانِ أغبَرانِ ويقودُها حُوذِيٌّ لَهُ مَقْعَدُهُ. طَوَّقَتْ غَمامَةٌ بيضاءُ من الغُبارِ حوافِرَ الفَرَسَينِ، وَما جَرَيا، إلا وَرَفرَفَ عُرْفاهُما.

كانتْ للعَرَبَةِ نافِذَةٌ ذاتُ سِتارَةٍ وحالَما مَرَّتْ العَرَبَةُ بِكلاس وكلارا، لَوَّحَ شَخْصٌ داخِلَها بيدِه.

وعَلى مسافَةٍ جَذَبَ الحُوذِيُّ الفَرَسَينِ، فَتَوَقَّفَتْ العَرَبَةُ في وَسَطِ الطَّرِيقِ. تَرَجَّلَ الحُوذِيُّ وفَتَحَ البابَ.

جاءَ عَدَدٌ مِنَ الأطفالِ مُسرِعِينَ وتَجَمَّعوا فَورًا حولَ العَرَبَةِ، لكِنَّ الحُوذِيَّ صَرَفَهُم. وَعِوَضًا عَنْ ذلكَ أشارَ إلى كلاس وكلارا لِيَتَقَدَّما. أيُمكِنُ تَصديقُ ذلكَ؟ لَقَدْ أرادَ الحصولَ على أَزْهارِهما!

في العَرَبَةِ جَلَسَتْ سَيِّدَةٌ جَميلَةٌ وسَيِّدٌ وَقورٌ مِنَ الأشرافِ. نَظَرا باسِمَينِ إلى الصَّغيرَينِ الجادَّيْنِ الواقِفَينِ هناكَ مَشدوهيْن. تَحديدًا كان الرَّجُلُ مَن ابتَسَمَ لَهُما. قالَ إنَّهُ يَعرفُهُما، وإنَّهُ قد اشتَرى زُجاجًا مِن والِدِهما في سوقِ بليكيريد الخريفَ المَاضي. وتساءلَ إنْ لَمْ يَتَذَكَّرا ذلكَ!

لا، لَمْ يَتَذَكَّرا. إلاّ أنّه معَ ذلكَ أرادَ الحُصولَ على أزهارِهما. قالَ شَيئًا لِلحُوذِيِّ الذي أَخرَجَ عُملَةً مَعدَنِيَّةً كبيرَةً أعطاها لِكلارا، وطلبَ منهُ الرَّجُلُ الثَّرِيُّ أن يُعطي كلاس مِثلَها.

فَبُهِت الطّفلانِ إلى درَجةِ أنّهما لَمْ يَنتَبِها إلى أنَّ عَلَيهِما إعطاءَ الأزهارِ، واضطرّ الحُوذِيُّ إلى أَنْ يَطلُبَ مِنْهُما تقديمَ الأزهارِ لِلسَّيّدَة.

أَخَذَت السَّيّدَةُ الأزهارَ وَوَضَعَتْها إلى جانِبِها في العَرَبَةِ. لَمْ تُطِل النَّظَرَ إلَيها، أمّا الرَّجُلَ فقالَ إنَّها جَميلَةً. ثُمَّ عادَ فابتَسَمَ لِكلاس وكلارا وسأَلَ السَّيّدَةَ فيما إذا كانتْ ترى أنَّ الطِّفلَينِ ظَريفَانِ.

– نعم، إنّهما حَسَنا المَظهرِ حَقًّا. أَلَنْ نُواصِلَ الآنَ!

– كما تُريدينَ يا رفيقتي، قالَ وَحَنى رَأسَهُ محيِيًا الطِّفلَينِ. أَغلَقَ الحُوذِيُّ البابَ. كانَ مُسِنًّا جِدًّا، وَقَبْلَ أن يصعدَ إلى مَقْعَدِه، نَظَرَ شَزَرًا إلى الطِّفْلَينِ وحذّرهما من أن يُضَيّعا المالَ، وأنَّ عَليهما أَن يَذهَبا مَباشرةً إلى البيتِ وأَبَويهما.

– لأَنَّهُ مالٌ كثيرٌ، قالَ بنبرةٍ جدّيّةٍ.

بدأت العربةُ تتحرّكُ، وَيَدٌ شاحِبَةٌ جَميلَةٌ لَوَّحَتْ بِوَهَنٍ مِن بينِ السَّتائِرِ، وللحظةٍ ظهرَ وَجْهُ الرَّجُلِ الوَقورِ، ثم مضَى الفرسان بالعَرَبَةِ بسُرعَةٍ، وما لبثَت أن اخْتَفَتْ وَسَطَ غَمامَةٍ مِنَ الغُبارِ.

وَقَفَ كلاس وكلارا أخرَسَينِ فاغِرَيْ الفَمِ خَلفَها. وَلَمْ يَطُلْ بِهما الأمرُ حتى تَحَلَّقَ الأطفالُ جميعًا حَولَهُما كَيْ يَرَوا المالَ. ومن المُؤَكَّدِ أَنَّهُما كادَا يَخسَرانِهِ لَوْلا أنَّ صوفيّا جاءَتْ راكِضَةً في اللحظَةِ نفسِها وقد أفقدها الذّعرُ لونَها.

دُهشَت بَعضَ الشَّيءِ عندَما رَأَت ما نالَ طِفلاها. وفَرِحَتْ كَذلكَ.

قالَتْ إنَّها نقودٌ ذهَبيَّة حَقيقيَّة.

قَصَدوا البَيتَ وانتَظَروا عَودَةَ الأبِ، ولَم تعُد صوفيّا تَجرؤ على الجَرْيِ إلى مُفتَرَقِ الطُّرُقِ. بَل تحمّلت بالصّبرِ ولازمتِ البيتَ.

مَضى النَّهارُ وَحلَّ اللَّيلُ. وَما مِنْ أَلبِرت. لَمْ يَعُدْ قَبلَ إعلانِ السَّاعةِ بُلوغَ العاشرةِ.

آنذاكَ كانَ الطِّفلانِ قد أَويا إلى الخزانةِ ونَاما.

تبيّن أنَّ ألبرت تَعَرَّضَ إلى مُعاناةٍ حقيقيَّةٍ، فَالمُزارِعُ شَرِبَ حَتّى الثُّمالَةِ في السُّوقِ وقادَ العَرَبَةَ كالمجنونِ، فانقَلَبَتْ الحمولةُ في خَندَقٍ وهما عائدانِ، وتَهَشَّمَ الزُّجاجُ كُلُّهُ، إلا أن ذلكَ لَمْ يُؤَثِّرْ في شيءٍ، فما مِنْ أَحَدٍ رَغِبَ في شرائهِ عُمومًا. لَمْ يَبِعْ ولا قِطْعَةَ زُجاجٍ واحِدَةً. كالعادَةِ!

لَمْ يأتِ أُناسٌ أثْرِياءُ لِيَشتَروا مِنهُ هذهِ المَرَّةَ! كانَ ألبرت حَزينًا ولا حَدَّ لِمُعاناتِهِ.

ذرعَت صوفيّا الأرضَ جيئةً وذهابًا والغُموضُ بادٍ عليها، ولَمْ تَقُلْ شيئًا. ثمّ، عندَما انتَهى مِن حكايَتِهِ، أَخرَجَتْ قِطعَتَيْ النُّقودِ الذَّهَبِيَّتَينِ اللتَينِ أُعْطِيتا للطفلَيْن وأَرَتْهُ إياهُما.

– أما هُنا فَقَدْ مَرَّ أناسٌ أَثرياءُ، لو شِئتَ أن تُصَدِّقَ، قالَت.

اتَّسَعَتْ عَينا ألبرت.

– لكِن لَم يَكُن لَدَيكِ ما تَبيعِينَهُ، قالَ.

– لَيسَ أنا، قالَتْ ضاحِكَةً، بَل الطِّفلانِ. اقتَطَفا الأزهارَ وباعاها هناكَ عندَ الطَّريقِ.

ثُمَّ أَخبَرَتْهُ عَن العَرَبَةِ الفَخْمَةِ وزُبّائِها الذينَ ما رَغِبوا في شراءِ الزُّهورِ إلا مِن طفْلَيهِما، فَلا أَحَدَ سواهُما سُمِحَ لَهُ بالاقترابِ. كانت صوفيّا فَخورَةً جِدًّا، لكنَّ ألبرتْ قَطَّبَ جبينه. لَمْ تسرَّهُ الحكايةُ كما سرّتها. وفي المقام الأول لم يعجِبْهُ أنَّها تركَتْ الطِّفلَينِ بدونَ إشرافٍ.

ثُمَّ شعرَ بالمَرارَةِ لأنَّ بعضَ الزُّهورِ الذابِلَةِ اعتُبِرَتْ أَكثَرَ قيمَةً مِنْ زُجاجِهِ.
ما فائدَتُهُ، كُلُّ ذلكَ النَّفْخِ في الزُّجاجِ؟
علَى هذا النحوِ انتَهى سوقُ الرَّبيعِ.

٦

أقبلَ صَيفٌ وَرَحَلَ، وكذلكَ فَعلَ شتاءٌ، وانْقَضَتْ تِلكَ السَّنَةُ.

شهدَ ألبرت وصوفيّا تَبَدُّلَ فُصولِ السَّنَةِ، وراقَبا طِفلَيْهِما يكبَرانِ، وما عَدا ذلكَ بقيَ كُلُّ شَيءٍ على عَهْدِهِ. والحياةُ سارَتْ في مساراتِها المعهودةِ.

وسَواء عادَ عليهِم ذلكَ بالنّفعِ أَم لَم يَعُد، كانَ لِزامًا على ألبرتْ أنْ يَنفُخَ الزُّجاجَ. وكان سعيدًا طالَما هو يعمَلُ. لَمْ يُهِمَّهُ عندَئذٍ أنْ يُفَكِّرَ أَيُباعُ زُجاجَهُ أوْ لا. فآنذاك، ينسى كُلَّ شيءٍ ويغمرُه الرِّضا.

تَمَنّى لَو يبقَى في مَشغَلِهِ طوالَ الوَقتِ مُتَملّصًا من الأسواقِ. ولكنَّها الطريقَةُ الوحيدَةُ لِلبَيْعِ، فالزّجاجُ قليلًا ما يُباعُ في القَريَةِ. والاعتِمادُ على ذلكَ فقط لا يَسُدُّ رَمَقَ أَحَد.

على عَكسِهِ، كانتْ صوفيّا تَوّاقَةً دومًا إلى مَوْسِمِ السُّوقِ. فهي تشعُرُ بالحَيَويَّةِ عندَئذٍ. ولقد حَصَلَتْ على وَعْدٍ باصطِحابِها ثانيَةً هذا الرَّبيعِ. أصبحَ الطِّفلانِ أكبَرَ بِكثيرٍ الآنَ. وسوقُ بليكيريد لن يأتي باكِرًا هذا العام، ليسَ قبلَ نهايةِ شهرِ أيّار، حِينَ يغدو الجَوُّ دافئًا ورائقًا.

فَكَّرَتْ صوفيّا دائمًا أنَّ الأمورَ ستَجري على هَوى ألبرت هذهِ المَرَّةَ. لا بُدَّ مِن أنْ يبتَسِمَ الحَظُّ لَهُمْ مَرَّةً. مَرَّةً لا بُدَّ مِن أن يَكونَ الدَّورُ دَورَهُم. ولماذا لا يحدثُ هذا في المَرَّةِ القادِمَةِ؟ نَعَم، شعرت في كُلِّ مَرَّةٍ أَنْ الآنَ؛ الآنَ سَيَحدُثُ

ذلكَ! سَيَبيعُ ألبرتْ كؤوسَهُ كُلَّها وَأوانِيَهُ كُلَّها!

بِهذا رَفَعَتْ مَعنَوِيّاتِ ألبرت، بَينَما هُما يُحمِّلان العَرَبَةَ بالزُّجاجِ، وفي النِّهايَةِ ارتَفَعَتْ مَعنَوِيّاتُهُ، حَتّى إذا ما انطَلَقوا في ذلكَ الصَّباحِ الجَميلِ مِنْ شَهرِ أيّار، انطلقوا سُعداءَ مُستَبْشِرينَ.

كانَ النَّهارُ رائعًا كذلكَ. فأزهارُ الكَرَزِ الأسودِ تَفَتَّحَتْ ونَشَرَتْ عِطرَها احتفاءً بالمُناسَبَةِ، وَبُذورُ الهِنْدِباءِ أَبْحَرَتْ فَوقَ أرضِ السُّوقِ تحتَ شَمسِ النَّهارِ. في يومٍ كهذا لا بُدَّ من أن يسيرَ كلُّ شيءٍ كما ينبغي.

بدا واضِحًا أنَّ النّاسَ كلّهم قد أَجمَعوا على ذلكَ. وعلَى غيرِ المُعتادِ حضَرت حشُودٌ غَفيرةٌ مِنهم. ووَفَّرَ لَهُم السُّوقُ مصادِرَ تسليةٍ أكثَرَ مِما عَهدوا. فَقَدْ نَصَبَ رَجلٌ مَسْرَحًا للدُّمى. وَجِيءَ كذلكَ بِكاروسيل أي دَوّامَة خيلٍ حقيقيّةٍ، وفي خَيمَةٍ استَعرَضَ بالِعُ سُيوفٍ ومُدرّبَةُ أفاعٍ مَهاراتِهما. عازِفُ أُورغِن يَدَويٍّ كانَ مَعَهُ دُبٌّ وآخَرُ مَعَهُ قِرد.

وكذلكَ سُمِحَ للكثيرِ مِنَ الأطفالِ أن يُرافقوا أهاليهِم إلى السُّوقِ. والغجرُ اصطحبوا دومًا صِغارَهُم الرّائعينَ، وكذلكَ جاءَ أطفالٌ آخرونَ، ضَجَّ المَكانُ بِهِم وأصابَهُم الدُّوارُ من فَرطِ سعادَتِهِم.

عِندَما رَأَت صوفيّا ذلكَ قالت لألبرت إنَّهُما أَحْسَنا صُنعًا باصطِحابِ كلاس وكلارا. فَهُما يحتاجانِ إلى بَعضِ التَّسلِيَةِ، وبالطَّبعِ وافَقَها ألبرت.

كانَ هنالكَ الكثيرُ مِمّا يُمكِنُ أن يراهُ الأطفالُ.

وكانَ الأكثَرَ رَوعَةً دُكّانٌ يَعرِضُ الدُّمى.

لَقَد خاطَتْ عَجوزٌ تلكَ الدُّمى جميعًا، وها هي اصطَفَّتْ وقوفًا وجُلوسًا

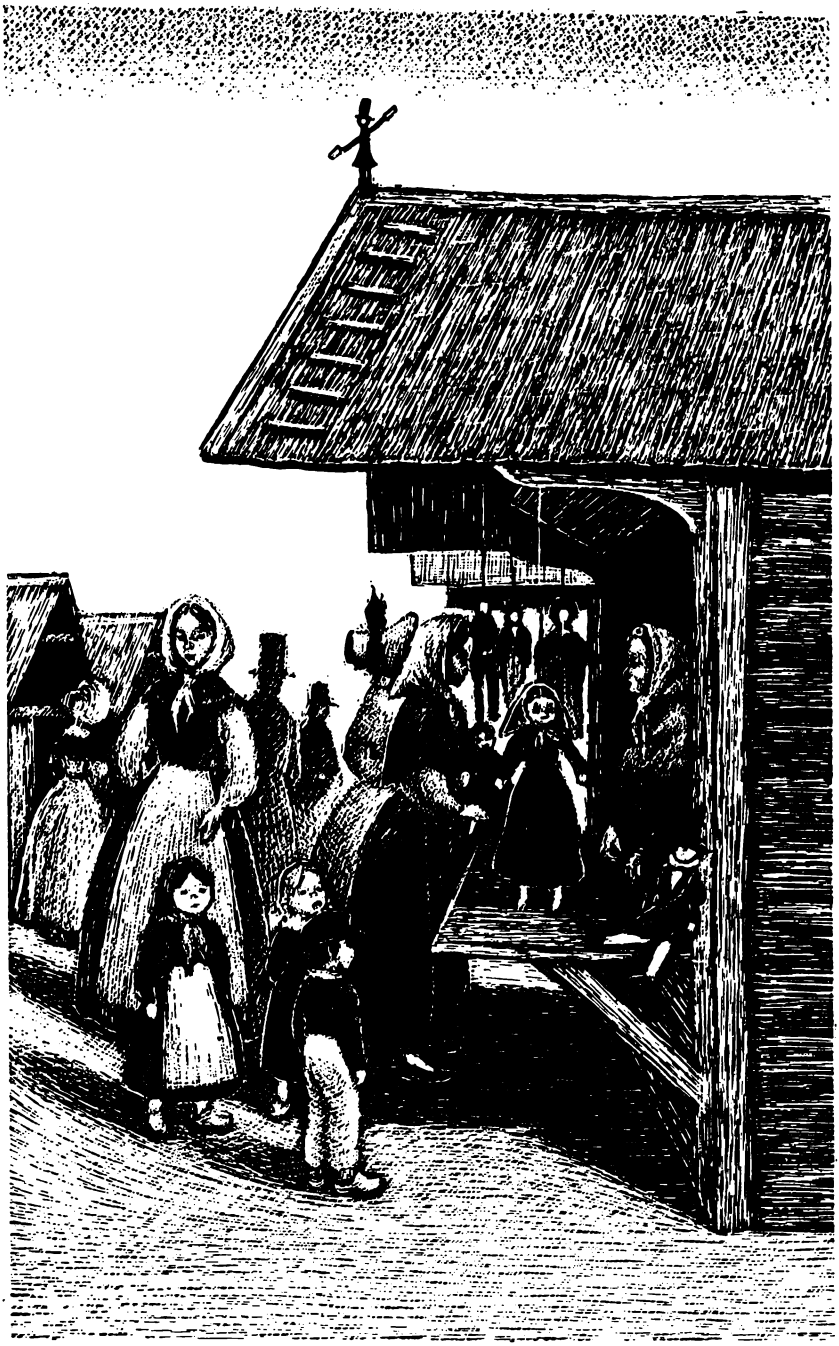

على الرُّفوفِ أو تَدَلَّتْ بأسلاكٍ من السَّقفِ. كانت الدُّمى كبيرةً، بحَجْمِ الأطفالِ الصِّغارِ تَقريبًا، شعرُها جعدٌ وعيونُها تفتحُ وتغمضُ، وترتدي ملابسَ حقيقيةً ومُتْقَنَةَ الصُّنْعِ أدهَشت كُلَّ مَن شاهَدَها.

كانَ ذلكَ الدُّكّانُ يَعِجُّ دائمًا بالنّاسِ، أُمَّهاتٌ وَبَناتٌ وَقَفْنَ يَمْسَحْنَ رُؤوسَ الدّمى ويَقرِصْنَ ثيابَها لِيَتَحَسَّسنَها وَيَتَنَهَّدْنَ باستِمتاعٍ. مِن المُؤَكّد أنّه لم يكُن في وُسعِ الجميعِ شِراءها بسبَبِ ثمنِها الباهظِ. واضطرَّ أغلَبُهم إلى الانتِظارِ لِيرَوا كيفَ ستَسيرُ أحوالُ تِجارَتِهم، قبلَ أنْ يفكّروا مجرّدَ تفكيرٍ في شِراءِ الدُّمى. كانَ سُكّانُ المُدُنِ الأثْرياءُ وحدَهُمْ مَنْ يستَطيعُ الشِّراءَ مُباشَرَةً.

وَقَدْ سَبَقَ لِصوفيّا وكلارا أنْ ذَهَبَتا إلى دُكّانِ الدُّمى عِدَّةَ مَرّاتٍ، واتَّفَقَتا على الدُّميَةِ التي سَتَشتَرِيانِها، في حالِ وُفِّقَ الأبُ في البَيعِ.

كانتْ إحدى أكبرِ وأثمَنِ الدُّمى، إلا أنّهما لم تظنّا بِجِدّيَّةٍ أنَّ الدُّمْيَةَ ستكونُ مِن نصيبِهما، ولكِنّ التَّمَنّي لا يُكَلِّفُ شيئًا. كانَت تلبسُ معطفًا مِنَ المُخمَلْ الأسودِ، ولها ضَفيرتان شَقراوان طويلَتانِ وَمنديلُ رأسٍ بَنَفسَجِيٌّ، ولا يُمكِنُ أن يتخيّلَ المرءُ مَدى جَمالِها.

كُلَّما ذَهَبَتْ صوفيّا معَ كلارا لتَرَيا الدُّمْيَةَ، غَلَبَتْهُما الخَشيَةُ نَفسها مِن أنْ تَكونَ الدُّميَةُ قَدْ بِيعَتْ واختَفَتْ. ولكِنْ تَخَيّلْ؛ بَقيت مُعَلَّقَةً في رُكنِها الصَّغيرِ بذلكَ السِّلكِ. بدا الأمرُ كأنَّها تَنتَظِرُهُما، حَسْبَما رأَتا.

وعندَما باعَ ألبرتْ زَوجًا مِنَ الأَواني فِعلًا، بَدَأَتْ كلارا تَتَمَنّى بِجِدّيَّةٍ. وكذلك صوفيّا، على الرّغمِ من كُلِّ شيءٍ، رُبَّما...

كانَ نافِخُ الزُّجاجِ الثّاني الذي شاركَه ألبرت الدُّكانَ، الأمهرَ في البيعِ كالعادَةِ

طَبْعًا، ولكنَّهُ لَمْ يجلِب الكثيرَ مِنَ الزُّجاجِ مَعَهُ هذه المَرَّةِ. وكانَ النّاسُ في مزاجٍ رائقٍ جدًّا في ذلك اليومِ المُشرِقِ ومُنفَتِحي الشَّهيَّةِ على التَّسَوُّقِ.

باعَ الجارُ آخرَ ما عِندَهُ قُبيلَ عصرِ ذلكَ اليَومِ، فكانَ أنْ أَقبَلَ النّاسُ على ألبرت بديلًا.

سارَ الأمرُ بمنتهى الرّوعَةِ حتّى أنَّهُ تَوَجَّبَ على صوفيّا أن تساعِدَه.

ونظرًا إلى أنّها والحالُ هكذا لَمْ تَستَطِعْ مُراقَبَةَ الطِّفلَينِ طوالَ الوَقتِ، طَلَبَتْ مِنْهُما البقاءَ على مَقرُبَةٍ.

وَقَدْ فَعَلا. أطاعا بِمُنتَهى الطِّيبَةِ في البدايَةِ. ولكنَّ كلارا فَكَّرَتْ بعدَ حينٍ أنَّ عَليها أن تذهبَ وتتفقّدَ الدُّميَةَ ثانيَةً.

مَضَتْ مَعَ كلاس. كانَ جَليًّا أنَّها تَعرِفُ الطَّريقَ ذهابًا وإيابًا، بَعْدَ أن قَطَعَتْها مرّاتٍ مَعَ أُمِّها.

إنَّما يا لِكَثْرَةِ ما يستَحِقُّ المُشاهَدَةَ في كُلِّ مكانٍ! ويا لِكَثْرَةِ الرّاكِضينَ في كُلِّ اتِّجاهٍ! وبِعَدْوى العُجالَةِ صارَ الطِّفلانِ يجريان هُنا وهُناكَ أُسوَةً بالآخرينَ.

وأَحيانًا مَرَّ بَعضُ أطفالِ الغَجَرِ في طَريقِهِما، وعِندَئذٍ لَعبوا معًا لِبُرْهَةٍ. ثُمَّ عَاودا السيرَ، سارا... وَسارا... وسارا...

فَجأَةً تنبّهَت صوفيّا إلى أن الطِّفلَينِ لَمْ يَرُدّا عندَما نادَتْهُما. جرَت خارجَ الدُّكّانِ. لَمْ تلمَحهما. سألَتْ عنهما في الدّكاكينِ المُحيطَةِ. لَمْ يَعرِفْ أَحَدٌ هناكَ شيئًا. قالوا إنَّ أغلَبُ الظَّنِّ أَن لا بأسَ عَلَيْهِما. ولا بُدَّ مِن أن يعودَ الطِّفلان. ألا يُمكِنُ أن يَتجوّلا ويتفرّجا قليلًا؟

في يومٍ مُبارَكٍ كَهذا لا داعيَ لأن يخافَ المرءُ!

لا، طبعًا. لَمْ تَكُنْ صوفيّا خائفةً على وَجهِ الدِّقَّةِ، لكنَّها أعلَمت ألبرت أنّ عليه البقاءَ وَحدَهُ قليلًا، إذ ينبغي أنْ تلتفتَ إلى رعايةِ الطِّفلَين. لَمْ تَرغَبْ في إخبارِهِ الحقيقةَ وإقلاقِهِ بلا داعٍ. لَقَدْ أدركَتْ بالتأكيدِ، وهي تُعمِلُ فِكرَها، أنَّ كلارا مَضَتْ بلا ريبٍ إلى دُكّانِ الدُّمى.

أسرَعَتْ صوفيّا إلى هناكَ. وكالعادَةِ رأَت الكثيرَ من النّاسِ، بيد أنّها لم تلمَح طِفليها. وصَفَتْهُما لِمن حولَها، واستَفسَرَتْ عَمّا إذا كانَ أحدٌ رآهُما. لا، لَمْ يَرَهُما أحَدٌ، ليسَ منذُ فَترَةٍ على أَيِّ حالٍ.

حَسَنًا، هُما في طريقِ العودةِ إذًا. فَكَّرَتْ صوفيّا وهمّت بالمغادرة، ثمَّ بَدا لَها أنّها ما دامَت هُناك، يُمكنها أن تتفقَّدَ الدُّميةَ ذات المعطفِ المُخمَلِي لِتتأكّدَ مِن أنّها ما زالَت مُعلّقةً في مكانِها. إذ لعلّهم قادِرون على شرائِها في نهايةِ المَطافِ، في حالِ انتهَى كلُّ شيءٍ كما بَدأ.

لكنَّ الدُّميَةَ لَمْ تَكُنْ هُناكَ.

حَزِنَتْ لِذلكَ بِشِدَّةٍ. مسكينَةٌ كلارا الصَّغيرةَ، وخَيبَةٌ كَهذه. رأت أنَّ علَيها أنْ تسألَ إن كانَت الدُّميَةُ قَدْ بِيعَتْ فِعلًا أمْ أنَّها أُنزِلَت مِنْ مَكانِها حَيثُ عُلِّقَتْ. دَسَّتْ نَفسَها وتقدّمَت نحوَ العَجوزِ.

نعم، لَقَدْ بيعَتْ الدُّميَةُ حَقّا.

– آه يا للحَظّ، تلكَ مُشكِلَة! من اشتراها يَا ترى؟ انبَرت صوفيّا تحدّثُ نفسَها، ثمّ ما لبثَ أن تناهَى إلى سمعِها شَيءٌ ما!

أَخبَرتْها العَجوزُ، أنَّ صَبِيَّةً صغيرَةً اشْتَرَت الدُّميةَ. وأنَّها شعرَت بالانزعاجِ بِسببِ السَّماحِ للأطفالِ أن يَشتروا مثلَ هَذه الأشَياء الثَّمينةِ بأنفُسِهِم. لَمْ تَكُن

الصَّبيَّةُ بِصُحبَةِ شخصٍ بالِغٍ، بَل بِرفقةِ أَخيها الصَّغيرِ فقَط. وأصعبُ ما في الأمرِ تقريبًا، قالت العجوزُ، إرسالُ أطفالٍ مَعَهُمْ مَبلَغٌ كبيرٌ منَ المالِ...

تَمَلَّكَ صوفيّا هاجِسٌ سَيِّءٌ وسَأَلَتْ عَنْ شكلِ الطِّفلَينِ وهَيئتِهما. وَمِنَ الوَصْفِ الذي حَصَلَتْ عليهِ لَمْ يَعُدْ لَدَيها أيُّ شَكٍّ في أَنَّهُما كلاس وكلارا. فَزِعت أَيّما فَزَعٍ. مِنْ أينَ لَهُما كُلُّ ذلكَ المالُ بِحَقِّ السَّماءِ؟

سألَت العَجوزَ إلى أينَ ذهَبَ الطِّفلانِ، فلَم تعطِها تلكَ العجوز جوابًا شافيًا. إذ لَم ترَ إلا أنَّ الصَّبيَّةَ راحَتْ جَذلَى في طريقِها وَهيَ تَضُمُّ الدُّميَةَ الكبيرَةَ إلى صدرِها وتَجُرُّ أَخاها وراءَها.

ما الوقتُ الذي مضَى على ذلكَ في تَقديرِها؟ قالت العجوزُ إنَّ ذلكَ على أغلَبِ ظَنِّها كانَ مُنذُ نَحوِ ساعَةٍ.

عادَتْ صوفيّا لاهِثَةً تَجري إلى الدُّكّانِ. لَعَلَّ الطِّفلَينِ هناكَ. لَقَدْ ضَلّا طريقَهُما طَبعًا. ليسَ من السَّهلِ عليهِما أن يتتبّعا طَريقَ العودةِ بينَ أولئكَ النّاسِ جَميعًا.

لم يَكُن الطِّفلانِ عندَ ألبرت. لَمْ يَرَهُما. شَحُبَ لَونُهُ قَلَقًا، عندَما أخبَرَتْهُ صوفيّا بِما حَدَثَ. تَرَكَ ما في يَدَيهِ كي يَذهَبَ ويَبحَثَ.

كانَ السُّوقُ كبيراً. ويُمكِنُ أن يتيها فيهِ حَقًّا. وليسَ الكُلُّ هنا لَطيفًا، قالَ ألبرت. ولا يَدري المَرءُ أيَّ صنفٍ عجيبٍ من البَشَرِ قد يرتادُ سوقًا كَهذا.

حاولَت صوفيّا تهدِئَةَ ألبرت.

لَقَد كانَ يومًا رائعًا. النّاسُ جميعًا فيهِ لُطفاءُ حَتمًا وسُعَداءُ. لا أحدَ يُفَكِّرُ في إيذاءِ طِفلَينِ صغيرَينِ، ولا بُدَّ من أنَّهُ يُدرِكُ ذلكَ!

لَمْ يَرُدّ ألبرت. بِسُحنَةٍ صارِمَةٍ مَضى يَبْحَثُ. سألَ الناسَ جميعًا. أجابوا كلّهم الإجابَةَ نفسَها. المكانُ يَعِجُّ بالأطفالِ. وليسَ مِن اليَسيرِ على المرءِ أن يعرِفَ أيَّ الأطفالِ رَأى. لكنَّهم وَعَدُوا أَنْ يفتَحوا عُيونَهُم. ولعلَّ الأمرَ خَيرٌ، فالأطفالُ هكَذا؛ يحبّونَ الركضَ والاختِباءَ هُنا وهُناكَ.

لكن السّاعاتِ مَضَتْ، والنهارَ زَحَفَ بِبُطْءٍ نَحْوَ الليلِ. هَجَرَ ألبرت وصوفيّا زُجاجَهُما إلى الأبَدِ. هذا ما جَرى في المَرَّةِ الوحيدَةِ التي باعَا فيها شيئًا، لَقَد اغتَرّا بذلكَ حتمًا...

دارا كَرُوحَينِ مُصابَتَينِ بِلَعْنَةٍ يبحثانِ عن صغيرَيْهِما. وبَدأَ كثيرٌ مِنَ النّاسِ يساعِدونهما بعدَ أَن أدركوا أنَّ الوضعَ أصبحَ غايَةً في الخطورةِ. لَمْ يَكن عادِيًّا أن يغيبَ الأطفالُ هذهِ المُدَّةَ كُلَّها، ولا بدّ مِن أن يَعضَّهم الجوعُ في أدنَى الأحوالِ.

آخرَ الأمرِ بَحثوا في جميعِ العَرَباتِ المَصْفوفَةِ في الغابَةِ حولَ السّوقِ. في حالِ انتهَى مطافُ الطِّفلين التَّائهين إلى هناكَ. ولعلّهما تَعِبا من التَّجوالِ فاندَسّا في إحدَى العرباتِ.

لم يكونا هناكَ.

اختَفَيا مِن غَير أن يَترُكا أثرًا.

عندَ دُكّانِ الدُّمى انقَطَعَ أَثَرُهُما. بعدَ ذلكَ لَمْ يَرَهُما أحَد.

كانَ النَّهارُ دافئًا. ثم حلّ الليلُ مصحوبًا بالبردِ. بزغَ القَمَر، كبيراً وشاحِبًا. وامتَلأَ الهواءُ ذو الزّرقة الشّفافةِ بالأغاني والعَزْفِ ومَرَحِ السُّوقِ. لكِنَّ ألبرت وصوفيّا لَمْ يسمَعا ولَمْ يَرَيا شيئًا ممّا جرى حَولَهُما.

كانت صوفيّا شاردَةَ الذِّهنِ تمامًا. تَرَنَّحَتْ في سَيرِها إلى جانبِ ألبرت، وفي

إحدى المَرّاتِ كادَتْ أن تَقَعَ. تَعَثَّرَتْ وسَقَطَتْ أمامَ عَرَبَةٍ فَخْمَةٍ سارَتْ تَشُقُّ طَريقَها على مَهَلٍ بينَ جموعِ النّاس في شارِعِ السُّوقِ. كانت عَرَبَةَ نُبَلاءٍ سَوداءَ، يَجُرُّها حِصانانِ. على باب العربة خُطّت عبارة «الشَّرَف. لا. السّعادة»، مكتوبَةً بماءِ الذَّهَبِ بِحُرُوفٍ بارِزَةٍ واضحةٍ. كانت نَوافِذُ العَرَبَةِ مُسدَلَةَ السَّتائِرِ بِنُبْلٍ ظاهِرٍ، وتَبِعَتْ مَسيرَتَها عُيونٌ مِلْؤها الفُضولُ.

النّاس الذينَ تابَعوا العَرَبَةَ بالتَّحديقِ كانوا سَيدهَشون لو عَلِموا أنَّ السّتائرَ تُخفي وراءَها طِفلَينِ وَحيدَينِ يرقُدانِ غارِقَينِ في النّومِ مُتعانِقين. وَدُمْيَةٌ كبيرَةٌ قَد انزلَقَتْ مِنْ يَدَيْ الطِّفلَةِ إلى أرضيَّةِ العربَةِ.

وتلكَ العرَبَةُ كادَتْ تَدْهَسُ صوفيّا. لَجَمَ الحوذِيُّ الحصانَينِ لَحظَةً، فتَمَرَّدا، أمسَكَ ألبرت بِصوفيّا وَجَرَّها إلَيهِ. ألقى الحوذِيُّ نَظَرَةً مُتَعَجِّبَةً على المَرْأَةِ الباكِيَةِ التي لَمْ تَنتَبِهْ لِطَريقِها. ثُمَّ مضَى في طريقِهِ مُفلِحًا أخيراً في الخلاصِ مِنَ الزِّحامِ في شارِعِ السُّوقِ.

آخرُ ما رآهُ هناكَ امرأَةٌ عجيبَة الهِنْدام، هَبَطَتْ منبثقةً من بينِ ظلالِ القَمَرِ لِتَخفِقَ أمامَ العَرَبَةِ قليلًا. كانت تَرتَدي مِعطَفًا ذا ياقَةٍ مُفَصَّصَةٍ وتَبدو تمامًا كَطَيرٍ عَجوزٍ.

عندَما مَرَّ الحُوذِيُّ بِها حَدَّقَتْ في وَجْهِهِ بِنَظْرَةٍ شَديدَةِ الغرابَةِ تَركت الحوذِيَّ في مزاجٍ فَظيعٍ. وَقَفَتْ في البُقعَةِ ذاتِها تُحَدِّقُ في العَرَبَةِ إلى أن انعَطَفَتْ بَعيدًا عندَ مُفتَرَقِ طُرُقٍ واختَفَتْ عَن بَصَرِها. عندَئذٍ تَنَفَّسَ الحُوذِيُّ الصُّعَداءَ. فَقَدْ شَعَرَ بِوَطْأَةِ نَظرَتِها في ظَهرِهِ طوالَ الوَقتِ.

استَمَرَّتْ المَسيرَةُ خلالَ اللّيلِ. شمالًا. لا يَعرِفُ أحدٌ في أيِّ طريقٍ.

امتدَت الغابَةُ مُظلِمَةً ومُغرقةً في السكونِ، إلى درجة أنَّ المرءَ يستطيعُ سماعَ جنيَّة الغابةِ تُغنّي. خطِيرَةٌ هِيَ، جِنِّيَّةُ الغابَةِ، خصوصًا بالنسبةِ إلى الشبّانِ من الرِّجالِ. لكنَّ الحوذِيَّ لَمْ يَلتَفِتْ يَمينًا ولا شِمالًا، فَقَدْ كانَ شَيخًا هَرِمًا لا يَستَجِيبُ للإغواءِ.

سارُوا في طُرُقٍ قَمَرِيَّةِ البَياضِ عبرَ المُروجِ، وعبر المُستَنقَعاتِ والأوحالِ، حيثُ تَراقَصَ لهبُ نيرانِ الأرواحِ الهائمةُ. مَضَوا إلى أن خَبا القَمَرُ وغابَ، وَسُمِعَ أزيزُ الرِّيحِ في الأحراشِ. أقبلَ الصَّباحُ وما زَالوا يَسيرون. حامت فراشاتٌ بِيضٌ فوق الطَّريقِ.

سارُوا لَيلًا ونَهارًا، والطِّفلانِ نائمانِ طوالَ الوَقتِ بِسكونٍ في العَرَبَةِ...

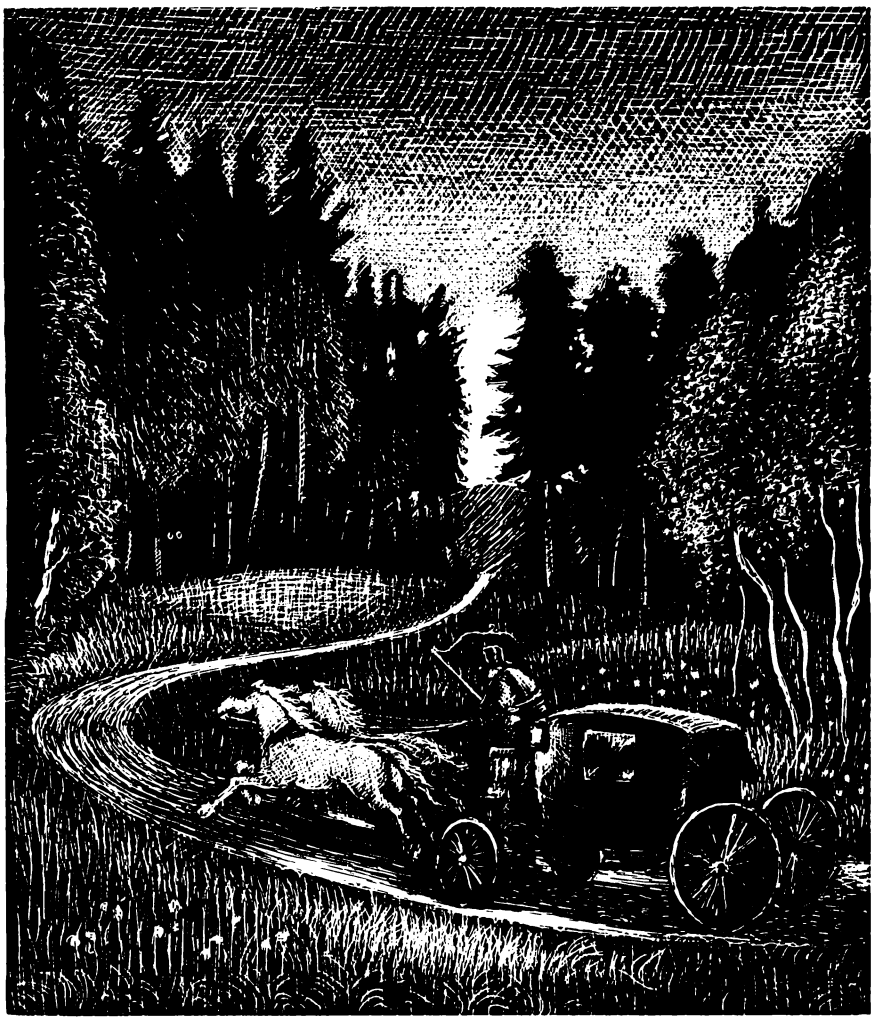

المقطع الثاني:

«لا يَعرِفُ شيئًا،
مَنْ لا يَعرِفُ
أنَّ الرَّخاءَ يَغُرُّ كثيرينَ
منهم الغنيّ،
ومنهم الفقير،
فلا تَلُمْهُ على ذلك!»

HAVAMAL

٧

كانت مدينَةً غيرَ عاديَّةٍ تلكَ التي ضَمَّت القَصرَ. اِسمها مَدينَةُ الأماني — وهي لَمْ تَعُدْ مَوْجُودَةً.

كانَتْ مُحاطَةً بِسورٍ عالٍ ذِي أبراجٍ مُحصّنةٍ لها فَتحات، ومُطوقةً بالماءُ، تستقرُّ في جَزِيْرَةٍ في نَهرِ الذِّكرَيات المّنسيَّة، وقيلَ إنَّها كانتْ مَنيعَةً.

شوارِعُها مُقْفِرَةٌ ومرصوفةٌ بأحجارٍ رَماديّة اللونِ وصُفُوفٍ طَويلَةٍ مِنَ القناديلِ السُّوْدِ التي تمتدُّ مُتَقاطِعَةً ومتفرِّقَةً عبرَ المدينة. لكنَّ المَدينَةَ، حيثَ ينبغي أن تقومَ الأبنيةُ، كانَتْ خاليَةً. لَا أَبْنِيَةَ فيها سِوى هذا القَصْرِ الوَحيد.

ليلًا تُضاءُ القناديلُ، إلا أنَّ أحدًا لا يسير هُناكَ، فَسُكّانُ القَصْرِ نادِرًا ما يَخرُجونَ. وإذا فَعَلوا، خرَجوا راكبينَ عَرَبَةً.

كانَ قَصْرًا حَجَرِيًّا داكِنًا، عاليًا وهائلًا في عُزلَتِه، كَئيبَ المَنظَر.

الرَّجُلُ الذي أَسَّسَ مَدينةَ الأماني كانت لَدَيه خُطَطٌ لا يَحُدُّها حَدٌّ. أرادَ أنْ يَفعَلَ الكَثيرَ، وقضَى حَياتَه كلّها مستغرِقًا في التّفكيرِ في ذلكَ. مَنَحَ المَدينةَ اسمَها، لا أكثرَ. وولدُه هو مَنْ بَنى القَصْرَ وعَبَّدَ الشّوارِعَ، ثُمَّ انتَهى أَمرُهُ هو الآخرُ. وتركَ ما تبقّى من إنجازاتٍ لِخَلَفِه.

الحاكمُ الذي يسكنُ القصرَ هناكَ الآن هو أحدُ أولئكَ الأبناءِ. قَناديلُ الشَّوارِعِ مِنْ ابتكارِه. في ذلكَ الوَقتِ لَم تَكن المُدنُ المُنارَةُ بالقناديلِ كثيرَةً، وهذا

ما جعلَ مدينتَه مميّزة وجميلَةً جدًّا.

إلا أنَّ فِكرَهُ شُغلَ بعد ذلك بأشياءَ أُخرى.

فَزوجَتُهُ، الحاكِمَةُ، كانتْ في مُنتَهى التَّعاسَة.

امتَلَكَت كُلَّ شَيءٍ، الجمالَ والغِنى والسُّلطَةَ. حَقَّقَ لَها زوجُها كُلَّ ما تَمَنَّتْ. لَم يكُن هناكَ ما يَضطرُّها إلى البقاءِ في عزلةٍ، إذ حتّى مع خلوِّ المدينةِ منَ النّاسِ سكنَ كثيرونَ في الجِوارِ. ومع ذلك لَم تَرغَبْ في رُؤيَةِ أحَدٍ، بل بقيت وَحدَها دَومًا.

أولئكَ الذينَ لَم يُحبُّوها قالوا إنَّ تصرّفها هذا ليسَ إلا محاولةً مِنها لإثارةِ الاهتمام. وهُم مخطِئون في ذلكَ، لأنّها كانت حَزينَةً بالفِعْلِ.

أشفَقَ الجَميعُ على الحاكِمِ الطيّبِ والمحبِّ للتضحيةِ. كانَ لا ينفكُّ يأتي الحاكِمَةَ سائلًا بِضراعَةٍ عَنْ أمانيها. وما الجوابُ الذي يحصلُ علَيهِ عندئذٍ؟ كلماتٌ من قَبيلِ:

– وما نَفْعُ التَّمَنّي؟ مادامَ كلُّ شيءٍ قابلًا للتَحَقُّق!

أو:

– ألا تُدرِكُ أنَّكَ تَسرِقُ أُمنِياتي، حينَ تَأتيني بِعطاياكَ؟

طبعًا لم يفهَم الحاكِمُ ما تعنيهِ، ولا أحدَ غيرهُ فَهِمَ. كانوا يَتَعَوَّذونَ من الشيطانِ، فَمِنْ حَقِّ المَرْءِ فِعلًا والحالُ هكَذا أن يَشُكَّ في سلامةِ عَقْلِها.

كانَ حاكِمُ مدينةِ الأماني شابًّا وَسيمًا، وقَدْ أدرَكَ ذلكَ. وُلِدَ ثَريًّا عَزيزًا. لا مِنَّةَ لأحَدٍ عليْهِ بِشيءٍ في هذه الدُّنيا، إذْ كُلُّ شيءٍ مِلكُهُ مُنذُ البدْءِ.

أحَبَّ إسعادَ النّاسِ، أحبَّ أنْ يُعْطي الهِباتِ وَيُحَقِّقَ الأمَاني. هذا ما فعلهُ

دومًا؛ ما يَعني بطبيعةِ الحالِ أنَّهُ وُلِدَ طَيِّبًا ولَطيفًا.

وكَم شعرَ بالسَّعادةِ يومَ التَقى فتاةً فقيرةً تَرتدي الأسمالَ، ولا تملكُ شيئًا في الدُّنيا! وأيّ بهجةٍ أعظَم مِن أن يجعلَها حاكِمَةَ القَصْرِ في مَدينة الأماني!

هي سعادَةٌ أرادَ لَها أن لا تَنتَهي!

تلكَ الفتاةُ التي لا ملَكَتْ ولا كانتْ شيئًا مِنَ البدايَةِ، ينبغي أنْ يَعيشَ مِن خلالِها تلكَ السَّعادَةَ مرّةً تِلو مرّةٍ، تِلو مرّةٍ، وتِلو مرّةٍ أُخرى...

لَم يَطلب مِنها إلا أن تَكونَ لَدَيها دائمًا أُمنِيَةٌ جاهِزَةٌ تطلبُها منهُ. أُمنِيَةٌ عَليهِ أن يحقّقها لها.

وللمَرءِ أنْ يرى أنَّ ذاك الشَّرطَ هو طلبٌ لا يترتبُ عليه أيُّ مقابِل، وأنّهُ مِن الحَري بها في الغالبِ أنْ تُلَبّيه!

لكنَّها كانتْ عَصِيَّةً على الفَهْم. بدلًا مِنْ ذلكَ أَطبَقَتْ صَدَفَتَها عَلَى نَفسِها، وقالتْ إنَّ أمَانيها قَدْ نَفِدَتْ مِنها؛ بَل إنّها، على حدِّ قولِها، قد سُلِبت مِنها.

كلمَةٌ واحِدَةٌ أَحَبَّها الحاكِمُ أكثرَ مِن سِواها.

وتِلكَ هي الكَلِمَةُ الصَّغيرَةُ «شُكرًا».

كلِمَةٌ فَريدَةٌ! وبِمقدارِ ما دَغدَغَ سماعُها أذنيهِ، كانَ مذاقُها مَريرًا في فَمِهِ. لَقَدْ جَرَّبَها، لِذا هو يَعرِفُ.

طَرَّزَتْ لَهُ الحاكِمَةُ مَرَّةً خُفَّينِ على سبيلِ الهَدِيَّةِ، وحينِ أعْطَتْهُ الخُفَّينِ قالَتْ:

- تُرى كَيفَ لَوْ قلْتَ شُكرًا؟

أَوَّلَ الأمرِ لَمْ يَفهَمْ ما عَنَتْ، وَضَحِكَ مُستَهزِئًا. أَكانَ لِيَفْعَلَ...؟ لا شكَّ

في أنّها تَمزَحُ.

ولكِنَّها لَم تَكنْ تَمزَحْ. أصَرَّتْ. قالَتْ إنَّه يستطيعُ أن يحاولَ على الأقلِّ، حتّى يَختبِرَ ذلكَ الشُّعورَ.

وطَبعًا لَمْ يَستَطِعْ، ففي ذلك ما يُسَلّيها!

وعَلقَت الكلمةُ هُناك، كَكُتلةٍ في حَلقِه، لَمْ يُفلح مُطلقًا في إخراجِها. وفي آخر الأمرِ وجدَ نفسه مُجبَرًا على بَصْقِها.

ادَّعَت الحاكمةُ أنَّها تَلَقَّتْها في وَجْهِها. ولكنْ ما الدّاعي لأن تُرغمَه بِدَورِها؟ كانَ في وُسعِها حَتمًا أن تُدرِكَ أنَّ الأمرَ أسوأ بالنِّسبَةِ إليه، هو الذي لَمْ يَجِدْ قطّ سَببًا يَستدعي منهُ قولَ كلماتٍ كهذهِ. الأمرُ بِطَبيعَةِ الحالِ أسْهَلُ بالنسبةِ إلى الآخرين.

لَمْ تُخفّف هذه الحادثةُ مِن تلهّفِه إلى سماعِ تلك الكلمَةِ الصَّغيرَةِ. بَل على العَكسِ لاحَظَ لاحقًا أنَّ حاجَتَهُ إلَيها تَضاعَفَتْ.

بَيْدَ أنّه ظَلَّ مُتَيَقِّظًا بَعدَ ذلكَ، وَحَذِرًا أشَدَّ الحَذَرِ مِنْ تَقَبُّلِ الهَدايا أو الخَدَماتِ مِنَ الحاكِمَةِ.

كانَ شَخْصًا هادِئًا وَواثِقًا من نفسهِ ورَزينًا. لَمْ يَبْدُرْ منْهُ سوءٌ قَطُّ. وبِمُجَرَّدِ رَغبَتِها في تَمَنّي شيءٍ ما، ستسيرُ الأمورُ على ما يُرامُ.

ولكِنَّها رَفَضَتْ.

أُمنيَةٌ وحيدَةٌ صرَّحَتْ بِها.

– أتَمَنّى الحصولَ على أطفالٍ، قالَتْ. أريدُ أنْ أَمنَحَكَ وَلَدًا. هكَذا قالَتها. أَمْنَحكَ، قالَت، فَأَدرَكَ عندَئذٍ أنَّها تُريدُهُ أنْ يَقولَ «شُكرًا» ثانيةً.

لَمْ يَكُنْ لِيُخدَعَ، فهو أكثَر حكمَةً مِن أن يفعَل. إلا أنَّ الأمرَ أَهَمَّهُ مَعَ ذلكَ. لَقَدْ صَرَّحَتْ بِأمنِيَةٍ، وَعَلَيْهِ أنْ يُحَقِّقَها.

يجبُ أن تَحصُلَ على طِفلِها. ويُفَضَّلُ أن يَكونَ صَبيًّا. بل يُستحسَن أن يمنحَها ولَدًا وبِنتًا. طبعًا هذه المشكلةُ ليست بلا حَلٍّ، مع أنَّها بلا شكٍّ مشكلةٌ. مشكلةٌ اضطرّته إلى إمعانِ التفكيرِ فيها طويلًا.

بَعدَ حينٍ بَدَأتْ صورةٌ بالظُّهورِ والتَّشَكُّلِ في رأسِه.

في سوقِ بليكيريد سَبَقَ أنْ رأى طِفلَينِ صَغيرَين، تَعَلَّقَ بِهِما. كانَ ذلكَ منذُ سنتين تقريبًا. ثمّ رآهُما ثانِيَةً في الرَّبيعِ الماضي، عندَما مَرَّ هو والحاكِمَةُ بقَريَةِ نودا. كانا يَقِفانِ على جانب الطَّريقِ يَبيعانِ شقائقَ النُّعمانِ، فاشترى منهُما. ثمَّ إنَّ الحاكِمَةَ ابتسَمَتْ عندَئذٍ على غيرِ العادَةِ، وقالَتْ إنَّهُما حَسَنا المنظرِ. لَقَدْ أَعجَباها بالتَّأكيد.

وها قَد أصبَحا هُنا، الطِّفلانِ اللَّذانِ أرادَ! صَبيٌّ وَصَبِيَّةٌ! لَمْ يَكُن الحاكِمُ شِرّيرًا؛ بَل على العكسِ تمامًا، ويمكنُ أن يشهدَ الجميعُ على طيبَتِه.

لكِنَّ غِشاوَةً غَشَتْ عينَيه. فَلَمْ يَرَ إلا ما أرادَ رُؤيَتَهُ.

ها هو يرى نافِخَ الزُّجاجِ وَطِفلَيْه. أما زوجَةُ نافِخِ الزُّجاجِ فَلَمْ يَرَها إطلاقًا.

تَصوّرَ في نَفسِه الفقرَ الذي يعيشُه نافخُ الزّجاجِ. وتخيّلَ العِبءَ الكبيرَ الذي يقعُ على عاتِقه ليعيلَ طِفليه!

وتبدّى لهُ أنَّ ذلك الأبَ المسكين سيشعرُ بارتياحٍ عظيم حتمًا إذا تولَّى الحاكمُ رِعايَةَ الصّغيرين الجَائعين! هو بالتأكيدِ سيَمنَحُهُما مُستَقبلًا واعِدًا.

ولا ريبَ في أنَّ الأبَ سَيَشكُرُهُ يومًا مَا على ذلكَ، حتّى لو عجزَ عن إدراكِ

ما مَصلَحَتُهُما الآنَ. نعم، على المرءِ أن يضَعَ هذا في حُسْبانِهِ مَعَ الأسفِ.

لِذا يَجبُ أن لا يَعرِفَ الأبُ شيئًا، ليسَ الآنَ على الأقلِّ. منَ الأفضلِ الاعتناءُ بالطِّفلَينِ أوَّلًا كي يعتادَ على غيابِهما.

ثُمَّ يُمكِنُ بعدَ فترةٍ أنْ يَتَحَدَّثَ إلَيْهِ. أو يُمكِنُ أن يرسلَ مبلغًا منَ المالِ إلَيهِ لِمداواةِ جراحِهِ. طبعًا ما مِنْ داعٍ للعجلةِ. يَجِبُ أنْ يَهدَأَ أوَّلًا وَيُدرِكَ أنَّ ذلكَ أَفْضَل.

نعم؛ كانتْ هذهِ في نَظرِهِ خُطَّةً مُمتازةً.

كُلَّما استغرقَ الحاكمُ في التفكيرِ فيها راقَت لهُ أكثرَ فأكثر. وكانَ الطِّفلانِ رائعَينِ. لَيْسا رَضيعَينِ بالطَّبْعِ. إنّما، أليسَتْ هذهِ ميزة؟

هكذا، لَنْ يُزعِجا الحاكِمَةَ بصُراخِ الرُّضَّعِ، هي التي يُصيبُها الصُّداعُ مِن أدنَى سببٍ.

وبالنِّسبَةِ إليهِ رأى أنَّ في صُحبةِ الأطفالِ الأكبرِ سنًّا متعةٌ أكثَر. أطفالٌ قادرونَ حقًّا على استيعابِ ما يَفْعَلُهُ مِن أَجلِهِمْ. ينبغي أن يَكونوا واعينَ بِما يَكفي لِيقولوا شُكرًا.

أسعَدَتْهُ الفكرةُ، وأشاعَت في نفسِهِ رِضًا بالغًا عندَما خَرَجَ وأمرَ الحوذي بالمُضِيِّ إلى سوقِ بليكيريد.

هذا في الواقعِ ما جَرى عندَما اختَفى كلاس وكلارا.

٨

مضى زَمَنٌ.

أصبحَ كلاس وكلارا من سكّانِ مَدينةِ الأمَاني، وصارَ القَصرُ بيتَهُما.

ما عادا الطِّفلان اللذانِ اختَفَيا في سوقِ بليكيريد. تَغَيَّرَتْ حَياتُهُما. أصبحا ثَرِيَّيْنِ ومُحترمين.

صارا تابِعَينِ لِلحاكِمِ والحاكِمَةِ.

صارا يَنتَميانِ إلى القَصْرِ.

مِن حياتِهِما الماضيةِ لَم يتذكّرا شَيْئًا.

لَمْ يتَذَكَّرا ألبرت وصوفيّا، ولا شَعرا بالفَقْدِ، ولا بأيِّ حَنينٍ للعودَةِ. نَسيا كلَّ ما سبقَ أن كانَ.

لم يُدرِكا أنَّ ذلكَ الحوذيَّ سقاهُما شَرابًا مُنَوِّمًا في السُّوقِ لِيَغفُوا طَوالَ الرِّحلَةِ.

عندَما أفَاقا كانَ كلّ مِنهما يرقدُ في سَريرٍ في غُرفَةٍ خَضراءَ كبيرَةٍ. لَمْ يَعرِفا مِن أينَ جَاءا ولا أينَ كانا. فقَط عرفَ أحدُهما الآخَر. وحالَمَا نَهَضا بَدأت حَياتُهما الجديدةُ، ولَم يَطرحا سؤالًا واحدًا.

ليسألَ المرءُ عن شيءٍ لا بُدّ له مِن أن يَعرفَ. وهما لَمْ يَعرِفا شيئًا. كانَ الماضي يعودُ إليهِما أحيانًا كَحُلُمٍ مُربِكٍ قصيرٍ لا يلبثُ أن يختفيَ بسرعةٍ كما ظهرَ.

كانَ كلاس وكلارا طِفلَينِ مُؤَدَّبَينِ. ارتَدَتْ كلارا ملابسَ حريريَّةً، وتَحَوَّلَتْ

ضفيرَتاها القصيرتانِ الغليظَتانِ إلى خُصَلٍ متموّجةٍ طويلَةٍ وجميلةٍ، كلّ خُصلةٍ منها تشبهُ لولَبَ مفتاحِ القَناني. وكان كلاس يرتَدي ثيابًا مِن مُخْمَلٍ.

بَدَيا كما تَمَنَّتْ صوفيّا تَمامًا في تلكَ المَرَّةِ في سوقِ بليكيريد منذُ زَمَنٍ بَعيدٍ، يومَ تساقَطت الشُّهبُ.

كذلكَ توافَرت لَدَيهما أَرْوَعُ الألعابِ التي يمكنُ الحُصولُ عَلَيها. لَمْ تَعُدْ كلارا بحاجَةٍ إلى الجلوسِ وتمشيطِ لَفائفِ الكَتّانِ. فَعندَها دُمىً بشَعرٍ حقيقيٍّ. ولَدى كلاس حصانٌ هَزّازٌ بَدا كَأَنَّهُ حَيٌّ.

تَمَتَّعا بتَناوُلِ الوَجباتِ التي يُفَضّلانِها إلى درجةِ الملَلِ مِنها والتَّفكيرِ بأخرى جديدَةٍ. داوَمت الطاهيةُ كُلَّ صباحٍ على الدّخولِ عَلَيهما مُستفسرةً عَمّا يَرغَبانِ في تَناوُلِهِ. ولَمْ يَكُنْ القرارُ أمرًا هَيّنًا دائمًا.

في النّهايَةِ لَمْ يَعودا يُطيقانِ ابتداعَ أطايبَ جَديدَةً، بلْ صارا يَجْلِسانِ عابِسَينِ وهما يأكلانِ وَجباتِهما المُحَبَّبَةَ القَديمَةَ. وبعدَ مُدَّةٍ لَمْ تَعُدْ لَدَيهما وَجباتٌ مُفَضَّلَةٌ. عندَئذٍ بدأ النُّحولُ يدبُّ في جسَديهما. أَكَلا وأَكَلا، فقد كانا يَفعلانِ كُلَّ ما يُطلَبُ مِنهُما، وعلى الرّغمِ مِن ذلكَ أَصابَهما الهزالُ. كان الأمرُ لُغْزًا.

ومع أنَّ الحاكمَ الحاكِمةَ عامَلاهُما بطيبةٍ دومًا، لم يهتمّا في الواقعِ لأمرِهما كثيراً. أَعجَبَهُما وُجودُهما هناكَ، فَمِنَ الحَرِيِّ بالقُصُورِ أن تتضمّنَ طِفلًا أو اثنينِ. والأطفالُ مَسرّةٌ للنَّظرِ طبعًا عندَما يكونونَ أنيقينَ ومُؤدَّبينَ.

ولكِن، لا يَنبغي أن يحتلَّ الأطفالُ مساحةً كبيرَةً، خُصوصًا إذا لَمْ يَكونوا مِن صُلبِ المَرءِ، حسبَما رأَت الحاكِمَةُ.

لَمْ تَسْعَدْ بِهِما كَما ظَنَّ الحاكِمُ، إنّما تقبّلَتهما فقَط. ودرَجت على القولِ

أنّهما طِفلا الحاكِم، وليسا طِفلَيها، وأنَّهُما «بِدْعَته» هو وحدهُ.

في البَدْءِ تَفرَّغَتْ لَهُما أكثرَ. أعجَبَها أنْ تُغَيِّرَ تَسريحتيهما وتُوصيَ لَهُما بِملابِسَ جديدَةٍ. شغَلها هذا بَعضَ الوَقتِ. ولمّا أصبَحا كمَا أرادَتْ، سُمِحَ لَهُما أن يُرافِقاها وهي تتمشّى في صالاتِ المرايا في القَصْرِ. وأحيانًا، إذا كانَ الطَّقسُ جميلًا لَهُما أنْ يَذْهَبا إلى الحديقَةِ الصَّغيرَةِ التي قَبَعَتْ كَفَضاءٍ وَسَطَ المَبنى.

إلا أنّهما كانَا في أغلبِ الأحيانِ يَقصدان صالاتِ المَرايا. عندَئذٍ يسيرانِ يَدًا بِيَدٍ مِن غيْرِ أن يتجاسَرا على النَّظَرِ يَمينًا أو يَسارًا، فَقَد لُقِّنا أنْ يَسيرا بطريقةٍ

راقيةٍ. وكانَا دائمًا ينظُرانِ بِقَلَقٍ إلى الحاكِمَةِ، خشيةَ أن يَبْدُرَ منهُما خَطأٌ ما.

أَحيانًا كانتْ تَتَوَقَّفُ وعندَئذٍ يتوقَّفانِ بدَورِهما. تلبثُ عندَئذٍ ساكِنَةً لِوَهْلَةٍ وَتَنظُرُ مُتَأَمِّلَةً في إحدى المَرايا، بَينما يَكتفي الطِّفلان بالتحديقِ فيها بلهفةٍ. إذ يحدثُ أحيانًا أن تلتفتَ إلَيْهما وتقولُ باسِمَةً:

– الأطفالُ يَليقونَ بي أكثرَ مِنَ الكلابِ...

ثُمَّ تُومئ برأسِها لَهُما وتَبتَسِمُ ثانِيَةً. وهذا عنَى السَّماحَ لَهُما بمُرافَقَتِها عِدَّةَ مَرّاتٍ. كانَتْ غايَةً في الجَمالِ، تلكَ الحاكِمَةُ، وغايةً في الحزنِ أيضًا. أَسْعَدَهُما ابتِسامُها وَرِضاها عَنْهُما.

في السابقِ اعتادَت على التَّجَوُّلِ بِرِفْقَةِ كَلبَينِ سُلوقِيَّيْنِ كبيرَينِ أسوَدَينِ، وبَدا ذلك مَنظَرًا مُحزنًا. وهي لَمْ تَبتَسِمْ قطّ للكَلبَينِ.

أمّا لِكلاس وكلارا فَقَدْ ابتَسَمَتْ أحيانًا، وسارَ كُلُّ شَيءٍ على ما يُرامُ إلى أنْ أراقَ كلاس بَعضَ المُربَّى على ياقَتِهِ المُطَرَّزَةِ، وجَعَّدَتْ كلارا ثوبَها. عندَئذٍ ضَجِرَتْ مِنْهُما، وقالَتْ للحاكِمِ إنَّ الكلبَينِ في جميعِ الأحوالِ أبرَزا جَمالَها أفضَلَ مِمّا فَعلَ الطِّفلانِ.

ثُمَّ عادَتْ تَسيرُ مَعَ الكَلبَينِ السلوقِيَّيْنِ الكبيرَينِ الأسوَدَينِ، اللَّذَينِ بَدَيا كَئيبَيْنِ وهما يُجرجِران أنفَيهِما على الأرضِيَّةِ.

أحزَنَ الأمرُ كلاس وكلارا، فَقَدْ أرادا حَقًّا أن يَنالا الرِّضا. وتبيّنَ أيضًا أنَّ ذلكَ عَكَّرَ مِزاجَ الحاكِمِ مع أنّه لَمْ يَقُلْ شَيئًا، لَمْ يَفْعَلْ مُطلقًا، اكتفَى فقط بالتَّنَهُّدِ.

بَعدَ ذلكَ تُرِكَ الطِّفلانِ لِحالِهما أغلَبَ الوَقتِ، فافتَقَدا الحاكِمَةَ، خُصوصًا

كلارا التي تاقَتْ إلَيها. انتَبَهَتْ مَرَّةً إلى نَفسِها وهيَ تُنادي «ماما». فَسَكتَتْ حالًا، مُتَعَجِّبَةً، لأنَّها لَمْ تَدرِ مِن أينَ جاءَتْ تِلكَ الكَلِمَةُ، ولَمْ تَكَدْ تَعرِفُ مَعناها.

لَمْ يُسْمَحْ لَهُما بِمناداةِ الحاكِمَةِ بـ «أمّي». لَمْ يُسمَحْ لَهما أن يَقولا أَيَّ شيءٍ إذا لم يُوَجَّهَ الكلامُ إلَيْهِما، وفي هذه الحالةِ عليهِما أن يُجيبا باختصارٍ. كانا يقولان: «نعم، سَيِّدَتي الحاكِمَة» أو «لا، سَيِّدَتي الحاكِمَة».

أحيانًا مازَحَهُما الحاكِمُ وعندَئذٍ كانَ مسموحًا لَهُما أن يَضحَكا، إنَّما ليسَ طويلًا ولا بصوتٍ عالٍ، لأنَّ ذلكَ ليسَ مِنَ الأدَبِ. أمّا ما عَدا ذلكَ فغالبًا ما يقتصرُ ما يَقولانهِ على كلمةِ «شُكرًا».

ضمَّ القَصْرُ مَمَرّاتٍ طويلَةً وصالاتٍ هائلَةً. ما أسهَلَ أن يَتيهَ المَرءُ بينَ الحُجُراتِ. وفي جميعِ الأرجاءِ سادَ صمتٌ مُطبِقٌ، بحيثُ لم يَكُن في وسعِ المرءِ أن يسمعَ شيئًا سِوى وقعِ خُطاهُ. وعندَئذٍ يعتريهِ الخَوفُ فَيَعْدُوَ، ويَعْدو ويَعْدو، وخوفه يتفاقمُ أكثرَ فأكثرَ، لكنَّ المَرءَ لا يقدرُ على الفِرار مِن وقعِ خُطواتهِ.

أحيانًا يصطَدِمُ المَرءُ بِشَخْصٍ لا يَعرِفُهُ. عندَئذٍ يخافُ أيضًا، على الرَّغمِ مِن علمِهِ بأنَّ الجَميعَ تابعونَ للقَصْرِ، فَلَيسَ لأيِّ شخصٍ آخرَ أنْ يدخلَ إلى هُنا.

مشى الجَميعُ بِهُدوءٍ دَومًا، حتّى لا تُصابَ الحاكِمَةُ بالصُّداعِ. وبالطبع يتعلّمُ المرءُ بدَورِهِ أن يمشيَ بِهُدوءٍ، وَبذا لا يصدرُ عن خطواتهِ وقعٌ عالٍ.

في القَصْرِ سلالِمُ كثيرةٌ مفروشَةٌ بالسَّجّادِ الوَثيرِ. هناكَ لا تُسمَعُ الخُطى على الإطلاقِ. وهناكَ مَشى كلاس وكلارا أغلبَ الوقتِ. شَعرا بالأمان على السّلالمِ، فهي تكتمُ خطواتِ المرءِ فلا يُزعِجُ أحدًا أو يقفُ في طريقهِ. كانَا يلهُوان على

تلك السّلالم لساعاتٍ صُعودًا ونزُولًا. ويتخيّلان عندَئذٍ أنَّ القَصْرَ جبلٌ.

ولأنَّ المَدينَةَ تَفتقِرُ إلى السُّكّانِ، لَمْ يَجِدا أطفالًا ليَلعبا مَعَهُم. ولَمْ يُدْعَ أَحدٌ إلى القَصْرِ مطلقًا. بيدَ أنَّ كلاس وكلارا لَمْ يَفتَقِدا الرفقةَ، فهما لَمْ يَعرِفا أنَّ هناكَ أحدًا آخرَ غَيرهما.

بِمعزلٍ عن كلّ ذلكَ، حَدَثَ مَعَهُما أمرٌ فريدٌ عِدَّةَ مَرّاتٍ.

لَمْ يُسمَحْ لَهُما بالسَّيرِ في صالاتِ المَرايا وحدهُما. فَهْيَ مُوصَدَةُ الأبوابِ عندَما لا ترتادها الحاكِمَةُ. إلا أنّ الدارَ حوت مَرايا كثيرةً أُخرى.

وصدفَ أنْ رَأى كلاس وكلارا فجأةً طِفلَيْنِ يَتقدّمانِ نَحوَهُما في نِهايَةِ أحَدِ المَمَرّاتِ. فَفَرِحا عِندَئذٍ. وطَفقا يجريانِ، وبالتالي جرى الطِّفلانِ المُقابِلانِ أيضًا حتّى التَقى الجميعُ. كانوا يلتَقونَ دائمًا أمامَ مِرآةٍ.

هناكَ تَوَقَّفا وجرت الحادثةُ الفريدةُ؛ لحظةَ أمَالا جَبْهَتَيهِما نَحوَ الزُّجاجِ وَقَفا جَبْهَةً لِجَبْهَةٍ كُلًّا مَعَ نَظيرِهِ في الجِهَةِ الأخْرى. رأيَا بوضوحٍ أعماقَ عُيونِ الطِّفلين الآخرينِ التي التَمَعَتْ مِنْ شدّةِ اللَهْفَةِ. ولَكَمْ وَقَفوا طَويلًا يتبادلون النظرَ والتأمّلَ. وسُرعانَ ما أدركَ كلاس وكلارا أنَّهُ ليسَ ممكنًا أن يُقابلا أطفالًا في القَصْرِ سِوى طِفلَيْ المَرآةِ.

أوَّلَ الأمرِ شَعرا أنَّ مُعاناةَ هَجْرِهما مِن قِبَلِ الآخرين تتضاءلُ كُلَّما التَقَوا، وكأنَّهُما اقتَسَما تلكَ المُعانَاة مَعَ الطِّفلَينِ اللذَينِ لا سبيلَ إلى الوصولِ إليهما. هذا على الرّغمِ مِن أنَّ أيًّا مِنهم لم يقُل شيئًا.

ثم اختَفَت اللَهْفَةَ في أحَدِ الأيّامِ مِنْ وَجهَي طِفلَيْ المِرآةِ: ما عادَ في الوجهينِ شيءٌ إلاّ الجَزَع والحُزن. يَومها فزِعَ كلاس وكلارا.

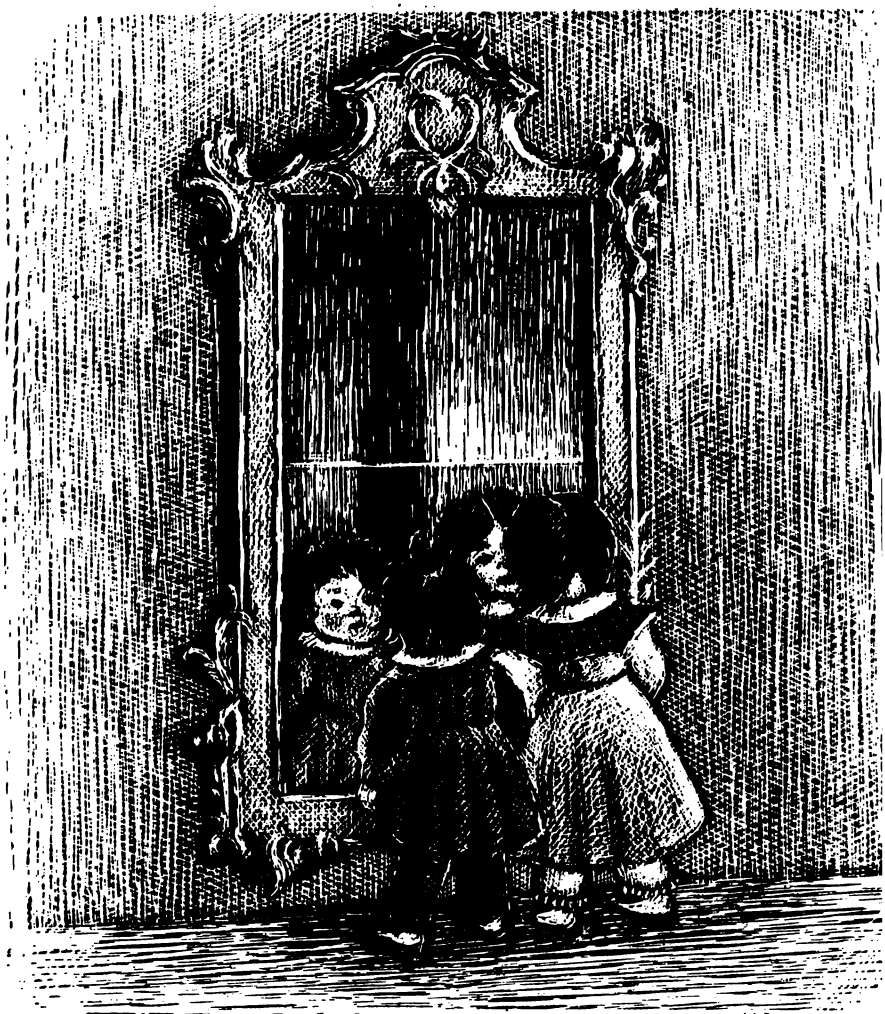

لَقَدْ نالا في الواقِعِ كُلَّ شيءٍ وكانَا في أَحسَنِ حالٍ، وها هُما يَشعُرانِ بالشَّفَقَةِ على طِفلَي المِرآةِ. أرادَا أن يَفعَلا شيئًا مِن أَجلِهما، أنْ يَرتَديا أحزَانَهُما. آخرَ الأمرِ شَعَرا أَنَّهُ قَدْ تَمَّ لَهُما ذلكَ، من غيرِ أن يَعرِفا كَيفَ.

بَعدَئذٍ لَمْ يَعودا يرغَبانِ في مُقابَلَتِهِما، تَجنَّباهُما، أرادا نِسيانَ وَجْهَيْهِما.

على السّلالمِ لَمْ تَكن هناكَ مَرايا، وهذا جعلَهما يَشعران بالأمانِ. هناكَ تخيّلا في لعبِهما أن القصرَ ليسَ قصراً بَل مُجَرَّدَ جَبَلٍ عتيدٍ ينبثقُ مِن الأرضِ. هناكَ كانا دائمًا وَحيدَينِ. أمّا أنَّهُما تعيسانِ، فهذا لَمْ يُدرِكاهُ.

والأحزانُ التي أثقلَت كاهِليهما لم تكُن أحزانَهُما، بَل أحزانُ طِفلَي المِرآة الغامِضةِ.

٩

ضَمّ القصرُ الكثيرَ من الخدمِ الذينَ تناوَبوا على رِعايَةِ الطِّفلَينِ. بَيْد أنّهم كانوا يُستبدلون بغيرهم دائمًا. ولم يَستمِرّ أحدٌ منهم في الخِدمة مدةً طويلةً قطّ. لذلكَ لَمْ يتَسَنَّ لكلاس وكلارا مطلقًا الوقتُ الكافي لِلتَعَرُّفِ عن قُربٍ إلى أيّ منهمْ. كانا دَومًا مُحاطَينِ بالغُرباءِ. الوجوهُ التي تُطِلُّ عليهما في الصباحِ متجدّدةٌ باستمرارٍ، توقِظُهما أصواتُ غرباءٍ. تُلبسُهُما الثّيابَ أيادي غرباءٍ، تُمَشّطُ شَعرهُما، تُقَدّمُ لَهُما الطَّعامَ وتَحمِلُ بَقاياهُ بَعيدًا.

لَمْ يَتَسَنَّ لَهُما مطلقًا أنْ يَعرِفا حقَّ المعرفةِ كُنهَ تلكَ الوجوهِ والأصواتِ والأيادي، وما إذا كانتْ ناعِمَةً ولطيفَةً ورؤوفةً، أو خَشِنَةً وقاسِيَةً وَخَطِرَةً.

في البَدْءِ درجَ كلاس وكلارا على النّظرِ بقلقٍ إلى كُلِّ خادمٍ جديدٍ، ثمّ مع مرورِ الوقتِ ما عَادا يهتمّانِ. تَعوَّدا. ما نَفعُ الحُزنِ أو السَّعادَةِ: ففي المرّةِ القادِمَةِ يأتي وجهٌ جديدٌ.

كانَ تكسيرُ الزّجاجِ بِكثرةٍ أحَدَ أسبابِ تَغييرِ الخَدَمِ الدّائمِ. وفي الآونَةِ الأخيرةِ خُصوصًا بدا أنّهم لا يَتصرّفون بحرصٍ. وبات الزّجاج المكسورُ يتناثرُ في كُلِّ مكانٍ. وعلى الرّغمِ مِن شراءِ زُجاجٍ جديدٍ حالًا، كان مصيرُه يؤول إلى ما آلَ إليهِ مصير ما سبقَهُ. ولأنّهم جميعًا أنكروا وتبادَلوا الاتهاماتِ واللومَ، كانَ مِنَ المستحيلِ ضبطُ الفاعلِ.

أصبَحَ الجَوُّ في القَصْرِ مشحونًا بالرِّيبَةِ والعِدائيَّةِ، فالجميعُ يَتَجَسَّسُ على الجميعِ، إلا أنَّ هذا لم ينفَع في شَيء. كانَ الأمرُ لُغزًا. أَفَعَلَ أحدٌ ذلكَ عَمدًا؟

في البدايةِ لَمْ يأبَه الحاكِمُ والحاكِمَةُ كثيراً. كانا يأتيانِ بزُجاجٍ جديدٍ ويَصْمُتانِ. ثمَّ، عندَما تَفاقَمَ الضَّرَرُ أكثرَ فأكثرَ، وساءَت الأحوالُ بَينَ الخَدَمِ، حتّى دَوَّتْ مُشاجَراتُهُم في أرجاءِ القَصْرِ، اضطرّا إلى التصرّفِ.

طَلَبَ الحاكِمُ في السِّرِّ مِنْ خادِمِهِ الأمينِ؛ الحوذِيِّ المُسنِّ، أن يُحاوِلَ اكتشافَ مَنْ يحطّمُ الزُّجاجَ في القَصرِ.

كانَ الحوذِيُّ طاعِنًا في السِّنِ وفطِنًا وجادًّا حدَّ اللعنةِ. وجهُه الجامدُ لا يُفصِحُ أبَدًا عَمّا يُفكّرُ فيهِ. وقُدرَتُهُ على التَّحَرُّكِ بِسُرْعَةٍ وصَمْتٍ مخيفةٌ، كأنَّ قدميهِ بجَزمَتَيْهِما لا تُلامِسان الأرضَ وَإنَّما تسيران قُدُمًا فوقَها بمشية مُتَشَنّجَةٍ ومُضْطَرِبَةٍ. انسَلَّ بَينَ الغُرَفِ كُدُمْيَةٍ صَفيحٍ مُعَلَّقَةٍ بخَيطٍ. مَنَحَهُ ذلكَ سِماتٍ غيرِ بشريةٍ.

لَمْ يُفصِحْ الحوذِيُّ عَمّا يجولُ في رأسِهِ. وعَرَفَ حَتمًا ما الإجراءَ الذي عليهِ اتّخاذُهُ ليَكشِفَ الفاعِلَ.

كانَ أوَّلُ ما فَعَلَ أنْ تَحَصَّلَ على الكثيرِ مِنَ الزُّجاجِيّاتِ. وَوَضَعَها في أماكِنَ مُختَلِفَةٍ مِنَ القَصْرِ، وهذا أتاحَ له أن يكتشفَ وبسرعةٍ أينَ يتحطّمُ الزّجاجُ قبلَ غيرِهِ. وبهذه الحيلةِ حدّدَ بدايةً موقعَ الجَاني.

كانَت الخُطوَةُ التّاليةُ أنْ يضعَ زُجاجيات وافرةً في أركانِ ذلكَ الجُزءِ مِن القَصْرِ ويَنتَظِرَ. وبعدئذٍ، يتَسَلَّلُ مُتَلَصِّصًا في أرجاءِ المكانِ كَعنكبوتٍ أسودَ على شبكَتِهِ. كانت الأبوابُ تُفتحُ وتُغلقُ بلا ضجيجٍ، كأنّما تفعلُ هذا مِن

تِلقاءِ نَفسِها، وَوَجْهُ الحوذِيّ الرَّمادِيُّ الجامِدُ يُطلُّ وَيَختَفي ثانِيَةً، لِيَظهَرَ عندَ بابٍ جديدٍ لِغُرفَةٍ أُخرى.

راقبَه الخَدَمُ وهم يهزّون رؤوسَهُم:

– لَقَدْ شاخَ وأصابَهُ الخَرَفُ، قالوا في مَا بَينهم.

كانَ ذلكَ صحيحًا، فهو مُسنٌّ طبعًا، ولكن ليسَ إلى حَدِّ الخَرَفِ. وليسَ هناكَ كثيرٌ مِنَ الشُّبّانِ الّذينَ يُضاهونَهُ في سُرعَةِ تَنَقُّلِه، وهذا في حدّ ذاتِه شيء مخيفٌ. إذ بَدا كما لو أنّهُ في كُلِّ مكانٍ في الوَقتِ نَفسِه.

وما أشَدَّ غرابَةَ عجزِه عن تحديدِ المُذنِبِ. كأنَّ الأمرَ مُدَبَّرٌ مُسبَقًا. فقد تحطّمَ الزّجاجُ دومًا حيثُ لَمْ يَكُنْ. وحدَثَ في أكثَرَ مِن مُناسَبَةٍ أنْ سمعَ صوتَ

شيءٍ ما يتحطّمُ ويتحوّلُ إلى ألفِ قِطعَةٍ في الغُرفَةِ المُجاورَةِ، وعندَما يفتَح البابَ لا يَعثرُ على أيّ أثَرٍ لِأَيّ أَحَدٍ. داهمَ طوالَ الوقتِ غُرفَةً فارِغَةً، لا تضمُّ إلا زجاجًا مهشّمًا متناثرًا على أرضِيَّتِها.

وبِما أنّه لا يسمعُ وقعَ خطواتٍ عندَئذٍ. تَراءى لهُ أنّ الفاعِلَ شَخصٌ يستطيعُ السيرَ بهدوءٍ مِثلَهُ تَمامًا. شخصٌ مِنَ الجَلِيّ أنَّهُ يماثلهُ مكرًا.

عجزَ عَن استيعابِ ذلكَ أو تَقبّلِه. أزعجهُ الأمرُ، وحفّزه في الوقتِ نفسهِ لِبَذْلِ جُهودٍ مُضاعَفَةٍ جديدةٍ. وفي حالِ جاءَه الحاكمُ ليسألَه عن سَيرِ الأمورِ، وما إذا كانَ قَدْ وَقَعَ على أثَرٍ ما، لم يعطِهِ أيَّ جوابٍ. كانَ سَيّدًا مِن ساداتِ الصَّمتِ. وهذا ناسَبهُ تمامًا إذ لم يَجد ما يقولُهُ والوضعُ على ما هو عليهِ.

أخيرًا خَطَرَ لَهُ خاطِرٌ نَمَّ عَن بَصَيرةٍ ثاقِبَةٍ.

رأى أنّه أخطَأ في وضعِ الزُّجاجِ في غُرَفٍ مُختَلِفَةٍ. فَقَدْ مَنَحَ ذلكَ خَصمَهُ فرصًا متعدّدةً.

أدركَ أنَّ عليهِ وضعَ الزّجاجِ في غُرفَةٍ واحِدَةٍ، وألا يقتصرَ ما يضعهُ على إناءٍ أو قَدَحٍ فقط بلْ عليه أن يضعَ مَجموعَةً كاملةً من الزجاجِ.

هَيَّأَ طاوِلَةً كَبيرَةً كَمَنْ يُعِدَّ لِحَفلَةٍ، وحشدَ عليها الأقداحَ والقَناني وشموعًا طويلةً أشعلَها لتشعَّ على الزّجاجِ وتبعثَ فيه بريقًا مغريًا بِحَقٍّ.

ثُمَّ غادرَ الغُرفَةَ. حَرَصَ على إغلاقِ البابِ خَلفَهُ كي لا يَفطِنَ أَحَدٌ إلى مَا يُدَبّرُهُ. ولكِنَّهُ لَمْ يذهَبْ بعيدًا. دَلَفَ إلى داخِلِ خِزانَةٍ كبيرَةٍ فارِغَةٍ في الغُرفَةِ المُجاوِرَةِ. وعلى مَهَلٍ دَفَعَ البابَ تارِكًا فرجةً صغيرةً مفتوحةً تسمحُ له بَرؤيةِ مَن قد يمرّ. وكذلك توجّب عليهِ أن يرهفَ سَمعهُ أيضًا، فَهُناكَ بابٌ آخرُ لِلغُرفَةِ التي

وُضِعَ الزُّجاجُ فيها، وَرُبَّما يختارُهُ المُذنبُ لِدُخولِها.

لبثَ يَنتَظِرُ وَيَنتَظِرُ. ولم يأتِ أحدٌ. ولَمْ يَسمَعْ حسًّا مِن الغُرفَةِ المُجاورَةِ.

في النهايةِ أرهَقَهُ المكوثُ في الخِزانَةِ فخَرَجَ مِنها، ومضَى مُحبَطًا نَحوَ البابِ الذي فَتَحَهُ بلا ضجيجٍ.

في اللحظَةِ ذاتِها تناهَتْ إلى سَمْعِهِ خَشْخَشَةٌ.

وَقَفَ عندَ البابِ. خلا وَجْهُهُ كالعادَةِ مِن أيِّ تعبيرٍ، لكنَّ ذِراعَيْهِ تَحَرَّكتا إلى الأمامِ والخَلفِ بِصَبْرٍ نافِدٍ استعدادًا للقَبْضِ على الفريسَةِ. لَمْ يُصَدِّقْ عَينَيْهِ، وجاهدَ ليتمالَكَ نفسه بُرْهَةً، إذْ لَمْ يَشَأْ أنْ تَضيعَ عَلَيهِ تفاصيلُ ذلكَ المشهَدِ العجيبِ الذي يأخذُ مَجراه هناكَ.

تَستَريحُ الغُرفَةُ في الظُّلْمَةِ، فَهُم في الشِّتاءِ، والنَّهارُ يقارِبُ نِهايَتَهَ، والظِّلالُ تحتشدُ في الزَّوايا. أمَّا على الطّاوِلَةُ فكانت تلكَ الشُّموعُ الطَّويلَةُ في شمعداناتِها تشتَعِلُ وتَكشِفُ بِنورِها الشَّخصَ الوحيدَ المَوجودَ هُنا.

إنَّهُ كلاس.

يَقِفُ على أَحَدِ الكَراسي المُحاذِيَةِ للطاوِلَةِ وفي يدِهِ قَدَحٌ زُجاجِيٌّ. القَدَحُ يَتَلألأُ وهوَ يُحَدِّقُ فيهِ وعلى وَجْهِهِ تَعبيرٌ ولا أعجَبُ. تعبيرٌ مشحونٌ بالحزنِ والتَّحَدّي والظَّفَرِ مَعًا. فَجْأةً يرمي القَدَحَ بِكُلِّ قُوَّتِهِ على الأرضِ، ويَعبُرُ إلى الكُرْسيِّ التّالي فَيأخذُ قَدَحًا جَديدًا.

وهكذا يَدورُ حولَ الطّاوِلَةِ حَتّى غَدا الزُّجاجُ كُلُّهُ شَظايا على الأرضِيَّةِ. بَعدَئذٍ يَنزِلُ كي يَعْدوَ مُبتَعِدًا. إنَّهُ حافٍ. يعدو بِخِفّةٍ وَسُرعَةٍ.

وإذا بالحُوذِيِّ المُسنِّ في طَريقِهِ.

وَقَفَ فَجْأَةً هُناكَ كَظِلٍّ بينَ أقرانِهِ من ظلالِ الغُرفَةِ.

لَمْ يَحْتَجْ سوى إلى مَدِّ ذراعِهِ كي يَقبِضَ على كلاس. حَدَثَ ذلكَ بلا كلامٍ. فالحوذِيُّ كما سَبَقَ القولُ كانَ سيِّدًا مِن ساداتِ الصَّمتِ، فَأُسْقِطَ في يَدِ كلاس.

وقامَت القيامةُ. مَنْ كانَ لِيُصَدِّقَ ذلك؟ الخَدَمُ الّذينَ اتُّهموا ظُلْمًا شَعَروا بالغُبْنِ وأرادُوا تَركَ الخِدمَةِ. أما الحاكِمَةُ فأَصابَها صُداعٌ، وأعادَتْ على مَسمَعِ الحاكِمِ ثانِيَةً أنَّ الطِّفلَينِ بِدْعَتُهُ، وأنَّ عَلَيهِ تَوَلِّي أمرِهِما بِنَفسِهِ.

تَعَجَّبَ الحاكِمُ. أفصحَ عن تعجّبِهِ عِدَّةَ مَرّاتٍ. الطِّفلانِ اللذانِ كانا غايةً في الطّاعةِ وَالأَدَبِ.

على كلاس طبعًا أن ينالَ عِقابَهُ، قالَ وَفكّر طويلًا في هذا. ثُمَّ تَكَلَّمَ معَ الحوذِيِّ الذي هَيَّأَ العَصا.

أزعجَ هذا الحاكمَ طبعًا، ولكِنَّ كلاس يَجِبُ أَنْ يُضرَبَ بالعَصا جَرّاءَ فِعلَتِهِ. بَعدَئذٍ لَنْ يعاودَ تكرارها ثانِيَةً أَبَدًا، أَوضَحَ الحاكِمُ وهو يُعطي الإذنَ للحوذي لِيُعاقِبَ كلاس. وفي الوقتِ نفسه مَنَعَهُ مِنْ الضَّربِ بِشِدَّةٍ...

عاوَدَ كلاس فِعلَتَهُ. وكانَ على الحوذِيِّ أن يُشَدِّدَ الضَّرْبَ أكثرَ فَأَكثرَ فأَكثرَ. بَيْدَ أن كلاس أَعادَ الكَرَّةَ مَعَ ذلكَ. طُلبَ مِنْ كلارا أنْ تُراقِبَ كلاس. ولم يأتِ هذا بنتيجةٍ. فَمُراقَبَةُ كلاس أمرٌ مُستَحيلٌ. لَقَدْ أَبدى خَصائصَ عَجيبَةً. كانَ ماكِرًا كَثَعلَبٍ وسريعًا كابنِ عُرس.

ماذا جرى لَهُ؟ لا بُدَّ أنَّ هناك خَطَأٌ ما. لَمْ يُطِقْ رُؤيَةَ الزُّجاجِ. هذا على الرّغم من أنّه ابنُ نافخِ زُجاجٍ! كانَ ذلكَ عجيبًا للغايَةِ!

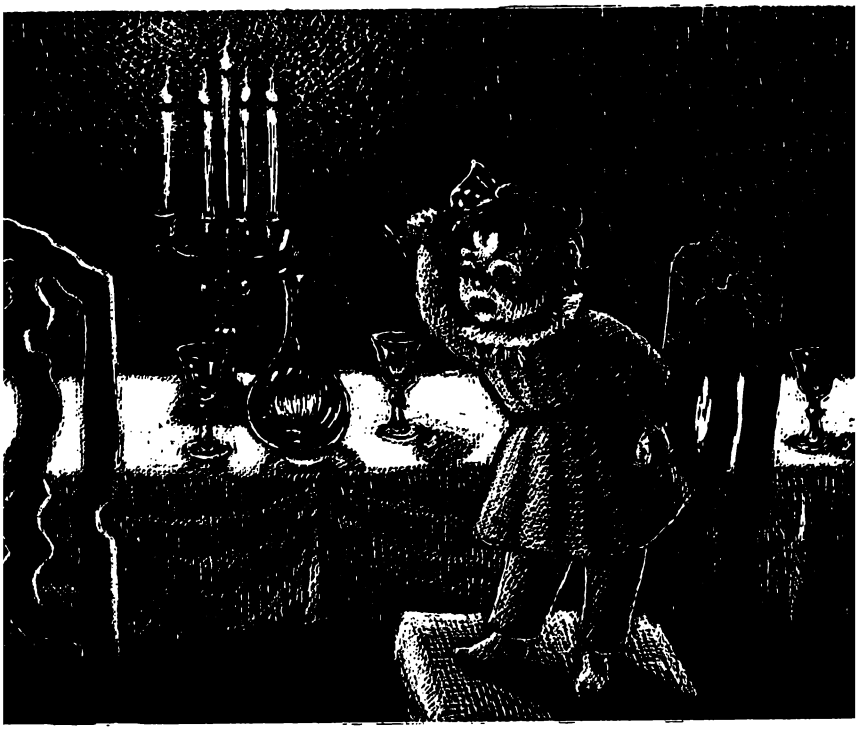

أَلَعَلَّ الطِّفلَينِ يَشعران بالوحدة أكثرَ مِمّا يَنبغي؟ أيُمكِنُ أنْ يَكونَ ذلكَ هو السَّبَبُ؟ قَرَّرَ الحاكِمُ تَعيينَ مُرَبِّيَةِ أطفالٍ لَهُما.

وهكذا دَخَلَتْ نانا في حياتِهما.

١٠

كانتْ جالسَةً تَأكُلُ عندما رآها الطِّفلانِ أوّل مرّةٍ.

قادَهُما الحاكِمُ إلى المائدَةِ حيث جَلَسَتْ نانا على مصطَبَةٍ عند أحَدِ جانِبَيها الطويلَينِ. صادَفَ ذلكَ وَقتَ الغَسَقِ، لَمْ يَكُن النُّورُ مُضاءً والغُرفَةُ تَقْبَعُ في العَتَمَةِ.

دسّت نانا في ياقةِ قَميصِها طَرَفَ مِنديلٍ كبيرٍ أبْيَضَ شعّ قُبالَتَهُما. وفي البدايةِ لم يَرَيا سوى المِنديلِ.

ثُمَّ رَفَعا بصرَهما فوقَعت عيونُهما على فَمٍ هائلٍ مَفتوحٍ على سِعَتِهِ، وقطعةٌ ضخمَةٌ مِنَ الكَعكِ تُلاكُ وَتُطْحَنُ. حَدَّقا مَسحورَينِ حتّى فَنِيَت قِطْعَةُ الكَعكِ وأُطْبِقَ الفَمُ مُتَحَوِّلًا إلى ابتسامَةٍ شَرِهَةٍ.

ألقَت عليهِما نانا تحيةَ المساءِ، وتَرَكَهُما الحاكِمُ تَحتَ رِعايَتِها.

في اللحظَةِ ذاتِها جاءَ الخادِمُ بِطَبَقٍ جَديدٍ، فَرَمَقَتْ نانا الطَّبَقَ والطِّفلَينِ بنَظْرَةٍ مُتَفَحِّصَةٍ واحِدَةٍ؛ نَظرَةٍ تساءَلَتْ: أهذا قابلٌ للأكلِ أم لا؟

وافَقَ الطَّبَقُ مِزاجَها، أمّا الطِّفلانِ فَكانا مَوضِعَ شَكٍّ. التَقَتْ عُيونُهُما بِعَينَيها الصَّغيرَتَينِ الخَطِرَتَينِ فَعَلِما في الحالِ أنَّ مصيراً بائِسًا يَنتظرُهُما.

طبعًا لم يَعنِ لَها رَأيُها فِيهِما شيئًا، فهي ستدمّرهما سواء أَحَبَّتْهُما أمْ لا.

فتلكَ طَبيعَتُها.

ما مِنْ وَصفٍ يُحيطُ إحاطةً كاملةً بِأبعادِ نانا. كانتْ مخلوقةً هائلةً جسدًا ونفسًا.

رأى الحاكِمُ أنَّ أَضخَمَ المُربِّياتِ هي الأنسَبُ. فوقعَ اختيارُه علَى نانا.

وقالَ إنّه لا يُريدُ بعدَ ذلكَ أن يزعجَه شأنُ الطِّفلَينِ، وكانَ لَهُ ما أرادَ. لم يحتَج لاحقًا قطّ إلى أن يَشغلَ بالَهُ بِهِما. لَمْ يحتَج حتى إلى رُؤيَتِهِما في حالٍ لم يرغَب في ذلكَ، وتحتّمَ عليهما أنْ يَعيشا مُقيّدين بنانا التي لم تُفلِتْهُما ولا لِلَحظَةٍ.

مُنذ ذلكَ الحينِ فقدَ كلاس وكلارا حياتَهما الخاصّة بِهما؛ عاشَا حياةَ نانا. عاشاها تمامًا كَما كانَ علَى البّبغاءِ البَكماءِ أن تعيشَها، الببغاءُ التي كانت حيوانَ نانا الأليفَ.

هي ببغاءُ صغيرةٌ هَلِعةٌ تقبعُ في قَفَصِها مُرهِفةً سَمعَها لِكُلِّ ما تَقولُهُ نانا. تُومِئ بائسةً بالإيجابِ كُلَّما التَفتَتْ نانا نَحْوَها مُشيرةً لَها بِمُرافَقَتِها، وتَطرفُ بِتَشَنُّجٍ بِعَينَيها الخائفَتَينِ الصَّغيرتَينِ مُتَلَوّيّةً ودائرةً حَولَ نفسِها.

لَمْ يَعرِفُ أَحَدٌ ما إذا كانَت هذه الببغاءُ قَدْ وُلِدَتْ بكماءَ أَوْ أنَّها فَقَدَتْ قُدرَةَ النُّطْقِ أمامَ هَذْرِ نانا. كانَ الصَّوتُ الوحيدُ الذي تصدرهُ عبارةً عَنْ صَرْخَةٍ عميقةٍ تَخترِقُ العَظمَ والنُّخاعَ. ولِحُسنِ الحَظِّ لم تعتَد على الصراخِ كثيراً، ربّما مَرَّةً أو مَرَّتَينِ في نَومِها. كانَ صوتًا لا يُطاقُ. يُجَمِّدُ الدَّمَ في العُروقِ. كَأَنَّ صَرخَتها تلك تحملُ في طيّاتِها كُلَّ شَقاءِ العالَمِ.

كانَ اسمُها مِمي.

وَدَّ كلاس وكلارا لو يوثّقا علاقَتهما بِمِمي، إلا أن هذا لم يكن مُمكِنًا. فنظراتُ ممي توجّهت دَومًا إلى نانا. لَم تَنظُرْ إلى الطِّفلَينِ قَطّ، كَما لو أنّها لا تراهُما.

مِن ناحيةٍ أخرى بَدا أنَّ حالَ كلاس وكلارا يكادُ يماثلُ حالَ مِمي. فقد لاحَقت عيونُهما نانا دومًا، وإن غَفَلا عن ذلكَ نالَهُما من الأذَى نصيبٌ.

كانت نانا تتناولُ الطّعام مَرَّةً كُلَّ ساعَتَينِ. عندَئذٍ تُهَيَّأُ لها مائدَةٌ كبيرةٌ فتجلسُ عند أحدِ جانِبَيها الطَّويلَينِ بينَما يجلِسُ كلاس وكلارا قُبالَتَها. أُثْقِلَتْ

المائدَةُ بالصُّحونِ الكبيرةِ والأطباقِ العميقةِ الغاصَّةِ بالطّعامِ، فَلَمْ يَكُنْ صعبًا على نانا أنْ تَبتَدِعَ الأَطايِبَ لِنَفسِها. وكذلكَ لِممي.

وبعدَ ذلك تصبحُ في أوجِّ النشاطِ والخطورةِ.

عِندَئذٍ تَتَفَرَّغُ إلى تَربِيَةِ الأطفالِ.

كان لَدَى نانا صندوق كبير، عمدَت إلى نبشهِ لِتُخرِجَ مِنه حُزْمَةً فيها كُتُبٌ وحاسباتٌ خَشَبِيَّةٌ وألواحُ كِتابةٍ استعدادًا لبدءِ الدراسةِ.

بَعدَئذٍ، بادرَت إلى استجوابِ كلاس وكلارا عَمّا في الكُتُبِ.

قفزَت مِن مَوضوعٍ إلى آخَر، ومن كتابٍ إلى كتابٍ غيره. وكلّما فعلَت صفقت الكُتُبَ بِشدَّةٍ جاعلةً الطّفلين يَقفزان هلعًا. تَكَرَّرَ ذلكَ وتكرّر، بينما وقَفا هناكَ كَأَبْلَهَينِ. لَمْ يَعرِفا شَيئًا. لَمْ يُحْسِنا شَيئًا. لَمْ يَفْهَما شَيئًا.

عِندَما تبيّنَ لها ما هُما عليهِ من جهلٍ، حانَ وَقتُ التَّأديبِ. انَدَفَعَتْ وقَدْ أعماها الغَضَبُ تذرعُ الغرفةَ ذهابًا وإيابًا. ذراعاها تتَصارَعانِ. والنَّظّارةُ الصَّغيرةُ على طَرَفِ أنفِها الهائلِ تَقفِزُ بِعُنْفٍ.

تيّاراتٌ مِنَ عباراتِ التَّقريعِ وألفاظِ التَّوبيخِ هَدَرَتْ مِنْ فَمِها. ثُمَّ تَوَقَّفَتْ في وسطِ الغُرفَةِ صارخَةً:

- كَرِّرا ما قُلتُه!

تَلا ذلكَ صَمتٌ مُريعٌ. لَمْ يَنبِسْ كلاس وكلارا بِكَلِمَةٍ. وَقفا والرُّعبُ يعتملُ فيهما لِصْقَ الجِّدارِ كَيلا تَسْحَقَهُما نانا. وقفا كالمُتَحَجِّرَيْنِ. والأفكارُ أُصيبَتْ بالشَّلَلِ.

ولكنَّ كُلَّما عَجَزا عَن الإجابَةِ، دنَت نانا منهُما وقرَصَتْهُما.

كانتْ صغيرةَ القدمَين، وصغيرةَ اليَدين كذلكَ، والحديثُ هنا عن نانا. إنَّما لا بُدَّ من أنَّ في قَدَمَيها قُوَّةً تَجعَلُهما قادِرَتَينِ على حَمْلِها. كما أنَّ في أصابِعِها بأسًا شَديدًا، وكلاس وكلارا يَعرِفانِ هذا.

وكُلَّما عاقَبَتْ نانا الطِّفلَين، قالَت إنَّها لَمْ تُواجِهْ قطّ طِفلَينِ عَصِيَّينِ على التَّربِيَةِ مثلَهُما. هُما غَير قابِلَينِ للتَّعلمِ، تقولُ مُتَأَفِّفَةً. نعم، إنهما عَصِيّان على الانقيادِ!

أَمّا سَاعات الغناءِ فهي الأفظعُ مِن كلّ شيءٍ. آنذاكَ يَتمنّيان لو أنّهما أبكمانِ مثلَ مِمي. فَنانا كانتْ بالِغَةَ الحِرْصِ والدِّقَّةِ في مسألَةِ الغناءِ.

أَخبَرْتُهُما أنَّها كانَ مِنَ المفترضِ أنْ تُصبِحَ مُغَنِّيَةً، لولا أنَّ في آذانِ النّاسِ خلَلًا. وها هيَ تُريدُ أن تعرفَ ما إذا كانَ هناكَ خَلَلٌ في آذانِ كلاس وكلارا أَيضًا.

وَقَفَتْ في وسطِ الغُرفَةِ وَأَمَرَتْهُما أن يُرهفا السَّمْعِ. غَنَّتْ أوَّلًا على فرضِ أن يُغنيا بعدَها.

غَنَّتْ بِصَوتٍ عالٍ، عالٍ جِدًا. وشَعَرَ كلاس وكلارا بغصّةٍ في الحَلْقِ بسببِ خَوفِهما. فَلَمْ يندّ عَنْهُما سوى نَقْنَقَةٍ مَبحوحَةٍ مُقتضبةٍ.

رأَت نانا أنَّ لَدَيهِما خَلَلًا في آذانِهما هُما أيضًا. وآذانٌ كهذهِ يَجِبُ قَرْصُها. لَمْ تَرَ في حياتِها قطّ آذانًا غيرَ موسيقِيَّةً مِثلها، قالَتْ وهي تقرصُها.

هكذا جرى الحالُ يومًا بعدَ يومٍ.

جَلَسَ كلاس وكلارا إلى المائدةِ وتفرّجا على نانا وهيَ تَأْكُلُ. استَلقَيا في سريرَيهما وسَمِعا نانا وهي نائمةٌ. وَقَفا مُلتَصِقَينِ بالجِدار وتعرّضا لتأديبِ نانا.

أنْ ترعَى نانا المرءَ يَعني أن يقعَ في بَراثِنها الفتّاكةِ.

١١

كان الحاكمُ والحاكِمَةُ راضِيَينِ عُمومًا عَنْ مُرَبِّيَةِ الطِّفلين. ورأيا أنّه من الرائعِ أيضًا أنْ تُدَرِّسَهُما، مَعَ أنَّها ليسَتْ بِحاجَةٍ إلى ذلكَ. وَلَعَلَّ دروسَ الغِناءِ المُتواتِرَةَ كانَتْ مُزْعِجَةً بعضَ الشَّيءِ، لِأنَّ نانا غنّت دائمًا بِطَبَقَةٍ عاليَةٍ جدًّا، وعلّلت ذلكَ بقولِها إنَّ الطِّفلَينِ لَيسا مُوسيقِيَّينِ ويَجبُ أن يَتَمَرَّنا كثيراً، لئلا يكونَ ما تسبّبه من إزعاجٍ ذَنبَها.

كما إنَّ الزُّجاجَ لَمْ يَعُدْ يُكَسَّرُ مُنذُ أن جاءَتْ نانا إلى القَصْرِ الكَبيرِ. ولَمْ يَستَطِعْ أَحَدٌ أنْ يَقولَ عنها شيئًا سوى أنَّها مربيةٌ مُمتازَةٌ.

لم يَكن هناكَ إلا شيءٌ واحدٌ صعبٌ؛ فرَغبتُها في تناولِ الطعامِ مَرَّةً كُلَّ ساعَتَينِ كانَت ممّا يُمكِنُ التّغاضي عنهُ، أمّا أنْ تَنامَ بَعدَ الطَّعامِ فذاكَ حدثٌ جلَلٌ. ليسَ النَّومُ بِحَدِّ ذاتِهِ، بَل نومُها الصاخبُ الذي أزعجَ القصرَ الكبيرَ بأكمَلِهِ.

على مدى رُبْعِ ساعَةٍ، كُلَّ ساعتَينِ، يَتَوَقَّفُ العُمَلُ نِهائيًا في القَصْرِ، ويتبادلُ الجميعُ النَّظرَ جزعينَ: ها قد نامَت نانا مَرَّةً أُخرى.

بدا الحال تقريبًا أشبَهَ بِدَوِيِّ الرُّعُودِ. ليسَ للمرءِ حيلَةٌ مَعَهُ، وَلا بُدَّ من أنْ يَأْخُذَ مَجراهُ، وآنذاكَ، لا يشعرُ المرءُ بالخوفِ حَقًّا، بَلْ بالانفعالِ والعجزِ عن فعلِ شيءٍ قبلَ انتهائِهِ.

هذا ما يصيبُ المرءَ كلّما نامَت نانا.

وبما أنَّ غرفةَ نومِ الحاكمةِ تقعُ تحتَ حجرةِ الطفلين تمامًا، عانَت من ذلك معاناةً شديدةً جدًا. وما فَتِئت عواصفُ ورعودُ نانا تقصفُ فوقَ رأسِها. ولَمْ يَرُقْ لَها مُجَرَّدُ التَّفكيرِ في الانتقالِ بِسَبَبِ نانا. فَفي هذا كثيرٌ من التَّمادي.

بدلًا من ذلكَ اقترَحَتْ نَقْلَ حُجرةِ نانا والأطفالِ إلى الطَّرَفِ الآخَرِ مِنَ القَصْرِ، ولكنَّ نانا لم ترحّب ولا حتّى بطرحِ الفكرةِ، وجاءَ رفضُها قاطعًا، فَتلكَ الحُجْرَةُ مناسِبَةٌ لَها؛ فيها صندوقُ الكُتبِ المَدرَسِيَّةِ، وصندوقُ أزيائِها كُلِّها، تلكَ التي أرادت أن ترتديَها في ما لَو أصبَحَتْ مُطرِبَةَ أوبرا – وهوَ ما كانَ ممكنَ الحدوثِ لو أنَّ آذانَ النّاسِ لا تُعاني من الخلَلِ. قالَتْ ذلكَ وَرَمَت الحاكِمَةَ بِنَظرَةِ اتِّهامٍ بلغَت من الشدّةِ ما جعل الحاكمةَ تنسحبُ بِسَبَبِها. فهيَ لَمْ تَرْغَبْ على الإطلاقِ في مُناقَشَةِ نانا عَن الآذانِ.

وفي مُناسَبَةٍ أخرى حاولَ الحاكِمُ الإشارةَ إلى أنّه من الممكنِ نقلُ الصناديقِ في حالِ عَزموا على تَغيير الحجرةِ، لكِنَّهُ نالَ نَظرَةً شَبيهَةً ارتَعَدت فرائصهُ مِنها.

– أنا غيرُ قابلَةٍ للنَقلِ! دَمْدَمَتْ نانا، وهكذا كَفّوا عَن المَجيء على ذِكرِ الانتقالِ بعدئذٍ. وأدركوا أنَّ عليهِم البحثَ عَنْ حَلٍّ آخَر.

في أحَدِ الأيامِ عادَ الحاكِمُ إلى القَصْرِ ومَعَهُ عُلبَةٌ كبيرةٌ فيها حُبوبٌ يُفتَرَضُ أنْ تكونَ علاجًا ناجعًا للشَّخيرِ؛ حبوبٌ كاتمةٌ للصوتِ، وتراءى له أنَّها سَتَنفَعُ مَعَ نانا حَتمًا. ما عَلَيهُم الآنَ إلّا أنْ يَجعلوها تبتلعها. ولأنّ نانا حادَّةَ الطَّبْعِ، حَرصوا على ألاّ يوجّهوا لها إهانَةٌ.

ثُمَّ، في صباحِ يومٍ ما جاءت تتَذَمَّرُ مِنَ التَّعَبِ، فَأَسرَعَ الحاكِمُ وَجَلَبَ العُلبَةَ

وأعطاهَا لها. قالَ إنَّ الحُبوبَ مُنَشِّطَةٌ، وإنَّ عَلَيها أنْ تَأْخُذَ منها مَعَ كُلِّ وَجبَةِ طعامٍ.

تناوَلَتْ نانا الحبوبَ وانتَظَرَ الجَميعُ مُترَقِّبينَ.

نامَتْ نِصفَ ساعَةٍ بَدَلًا مِنْ رُبْعِ ساعةٍ، ولَمْ يَحدُثْ شيءٌ عَدا ذلكَ. بَقيت الجلبةُ على حالِها.

بَعدَ ذلكَ قصدَت الحاكمَ وشكرتهُ، واعِدَةً إياهُ بالمداومةِ على تناولِ الحبوبِ، لأنَّها شَعَرَت بأنَّها أنشَطُ بكثيرٍ، حسبَ قولِها.

وَهذا عَنى أنَّ القَصْرَ سَيُصابُ بالشَّلَلِ التّامّ ضِعفَ المُدَّةِ السّابِقَةِ.

كانَ ذلكَ كارِثَةً.

اضطرّت الحاكمةُ إلى تناولِ حبوبٍ مهدّئةٍ للأعصابِ، وإلى وضعِ سِداداتٍ في أذنَيها. كانت قد شَحُبَتْ وساءَتْ حالُها، وليس هناكَ مِن شيءٍ يمكنُ فعلُه حِيال ذلكَ، على اعتبارِ أنَّ نانا صاحبَةُ أَفضالٍ كثيرةٍ تُحتّمُ على أهلِ القَصْرِ التكيّفَ معها وتقبّلها. هذا ما قِيلَ على الأقلِّ، أما الحقيقَةُ فهيَ أنَّ أحدًا لَمْ يَجرُؤ على إقالَةِ نانا. أدرَكَ الجَميعُ أنَّها عازِمةٌ على البقاءِ بقدرِ ما تَشاء. فهي منذُ أن جاءَت إلى القصرِ أصبحَت صاحبَةَ القرارِ، تلكَ هي الحقيقَةُ بأكمَلِها.

كانَ كلاس وكلارا المُستفيدَيْن الوَحيدين مِن نَومِ نانا. فقد اعتبرا نومَها رحمةً، وفسحةَ ترويحٍ قصيرةٍ مَهما بَدا هذا مستغربًا. وذلك لأنّ نانا على الرّغم من كلّ شيء أقلُّ خطرًا وهي نائمة. ورأى الطِّفلانِ أنَّ مِنَ مصلحتِهما أن تنامَ نِصفَ ساعَةٍ بتمامِها.

وَطَبعًا نامَتْ مِمي المُدَّةَ نَفسَها، وعِندما تَنامان، ينهضُ الطِّفلانِ مِن سريرَيْهِما

ويتسلّلان خارجَ الغُرفَةِ، وحينَ تستَيقِظُ نانا يكونانِ في الفِراشِ ثانيَةً. وَقَدْ حَرصا أَشَدَّ الحِرصِ على ألاّ يَعودا مُتَأَخِّرَينِ، فَتلكَ اللحظاتُ هي كُلُّ ما تَبَقّى لَهُما مِن وَقتٍ يقضيانِهِ في ما يُحبّانِ.

ليسَ في القصرِ الكثيرُ ممّا يمكنُ أن يفعَلاه، لكِنَّهُما كانا حُرَّينِ عِندَئذٍ وهذا كافٍ بِحَدِّ ذاتِهِ. في البدايةِ على الأقلِّ.

درَجا على الذّهابِ إلى السَّلالمِ لِيَلعَبا لُعبَتَهُما القَديمَةَ؛ لُعبَةَ أنَّ القَصْرَ جَبَلٌ. إلا أنَّ الجَبَلَ أصبحَ أخطَرَ في الآونَةِ الأخيرَةِ. فَمَعَ كُلِّ يَومٍ يَمُرُّ شهَقَ وعظُمَ ارتفاعُه وغدا أفظَعَ وأكثرَ عَتَمَةً وكآبَةً. ما عادَ يُجدِيهِما التَّظاهُرُ بأنَّهُ ليسَ سوى جَبَلٍ عَتيقٍ عادِيٍّ ناتِئٍ من الأرضِ. فَقَدْ أصبَحَ جَبلًا في منتَهى الخُطورَةِ. مُدَمدِمًا بلا انقطاعٍ طوالَ الوَقتِ، كأنَّ عِملاقًا صالَ وجالَ هناكَ. عملاقٌ نائمٌ يمكنُ أن يستيقظَ في أيِّ لَحظةٍ.

قالَ كلاس إنَّهُ يُريدُ أن يلعبَ لُعبَةَ الخروجِ منَ الجَبَلِ. لَمْ يرغَب في أن يَبقى صاعدًا نازلًا على السلالمِ هناكَ، أرادَ الخُروجَ إلى أحدِ المَمَرّاتِ. لكنَّ كلارا لَم تَعرِفْ كيفَ تلعبُ تلكَ اللُّعبَةَ. وربَّما لا لعبةَ هناك على هذهِ الشّاكِلَةِ. رُبَّما ليسَ هناك إلا جبالٌ لا يَخرُجُ المرءُ منها أبَدًا...

عندَئذٍ لَمْ يَعرِفا ما اللعبةَ الأُخرى التي يُمكن أن يلعَباها.

وَقفا في وَسَطِ القَصْرِ على ذلكَ السُّلَّمِ اللانهائيّ، والدَّمدَمَةُ حولَهُما تَعلو وتَنخفضُ. وفي الحالِ أدْركا فداحةَ حَجمِ وحدَتِهما. لَم يكونا وحيدَينِ فَحَسبُ، فَقَدْ يَختارُ المَرءُ أنْ يكونَ وحيدًا أحيانًا، بَلْ كانا مَهجورَينِ، وذلكَ أسوأُ بكثيرٍ، فلا أحدَ يرغَبُ في أن يُهجَرَ.

غَرِقا في الحُزنِ على السُّلَّمُ.

الآنَ فقَطْ شَعرا أنَّ القَصْرَ واسِعٌ إلى ما لا نهايةَ، ولِجَزَعِهما رأيا أنّهما يتضاءَلان، أنَّ القصرَ قد ابتَلَعَهُما، ولَنْ يَعثُرا على مَخرَجٍ أَبَدًا، كانا يَصْغُرانِ ويَصغُرانِ. هكذا شعَرا حيثُ جلسا.

عندَئذٍ بَلَغَهُما الضَّجيجُ منْ كُلِّ صَوْبٍ؛ مِن فَوقٍ، ومِنْ تَحتٍ، ومِنْ جَميعِ الجِهاتِ، تصاحبهُ أصواتٌ مُتَكْتِكَةٌ خافِتَةٌ صغيرةٌ. أَصغَيا مَشدوهينِ. جاءتْ الأصواتُ مِنَ السّاعاتِ التي تقيسُ الزَّمَنَ في القَصْرِ. فجميعُ الغرفِ فيها ساعَات ومَرايا. وحيث جلسَ الطفلان تحديدًا يمكن سماعُ السّاعاتِ جميعِها دَفعَةً واحِدَةً. كَما لو أنَّ أصواتَها عَيَّنَتْ موعِدًا لِلّقاءِ هنا. أَصغى كلاس وكلارا بلَهفَةٍ: هناكَ القليلُ من العَزاءِ في هذا، هنالكَ بصيصُ أملٍ ضئيلٍ. لَقَدْ تسنّى لهما سَماعُ السّاعاتِ على الرّغمِ من الضَّجيجِ. رأيا أنّها لَمْ تَستَسلِمْ. تَكَّتْ كأنَّ الأمرَ أمرُ حياةٍ أو مَوتٍ.

ولَعَلَّ نانا وهي نائمةٌ في سريرِها، شعرت أنَّ الطّفلَينِ أَصغَيا لبرهةٍ إلى شَيءٍ آخرَ سِواها، وهذا ما لا تسمحُ به طبعًا. وهكذا، أخرست بِنَفَسٍ واحِدٍ وعلى الفَورِ جَميعَ ساعاتِ القَصْرِ.

مِثْلَ مَوجَةٍ عملاقَةٍ عَلا الضَّجيجُ غامِرًا ما عَداه من الأصواتِ في القَصْرِ. من جديدٍ كانَتْ نانا الحاكِمَةَ المُطلَقَةَ.

نَهَضَ كلاس وكلارا مُتماسكي الأيْدي وصَعِدا السُّلَّمَ بِبُطْءٍ، يَغمُرُهُما حُزنٌ لَم يَشْعُرا بِمِثلِهِ قطّ، وقد تَبَدَّدَتْ آمالُهُما. حتّى السّاعاتُ لَمْ تَعُدْ موجودَةً. غَلَبَتْ نانا الزَّمَنَ كَذَلكَ. وإلى أبَدِ الآبِدينَ لَنْ يُسمَعَ شيءٌ سواها.

سارا في طَريقِهما عَبرَ المَمَرّ الذي اعتادا سابقًا لِقاءَ طِفلَيْ المرآةِ فيه، قبلَ أنْ تأتيَ نانا، وهناكَ أخَذا مِنْهُما أحزانَهُما، لأنَّهُما كانا بلا حُزْنٍ. أمّا في تلك اللحظةِ فكانَ لَدَيهما الكثيرُ منهُ. كانا أكثرَ أطفالِ العالَمِ بُؤسًا. وفَكَّرا في أنَّ طِفلَيْ المرآةِ رُبّما استَطاعا مُساعَدَتَهُما. رُبَّما هما سعيدانِ ثانِيَةً الآنَ.

نَعَم، لا بُدَّ لَهُما مِن الالتقاءِ مع طِفلَيْ المِرآةِ!

بَدآ يَرْكُضانِ لكِنَّهُما تَعِبا، فالمَمَرُّ طويلٌ جِدًّا، سارا وسارا. لِماذا لَمْ يأتِ الطِّفلانِ إلَيهِما، لَمْ يَرَيا أحدًا. وصلا إلى المرآةِ التي اعتَادا لقاءَ الطِّفلَينِ عندَها لِيَقِفوا مُتَقابِلِي الجِباهِ ولا يَفصِلُ بَينَهُم سوى الزُّجاجِ.

إلا أنهما لَمْ يَلتَقيا على الإطلاقِ بِطِفلَيْ المِرآةِ. كانت المَرايا خاوِيَةً.

فأَدْرَكَ كلاس وكلارا عندَئذٍ أنَّ الطِّفلَينِ لَمْ يَعودا مَوجودَينِ.

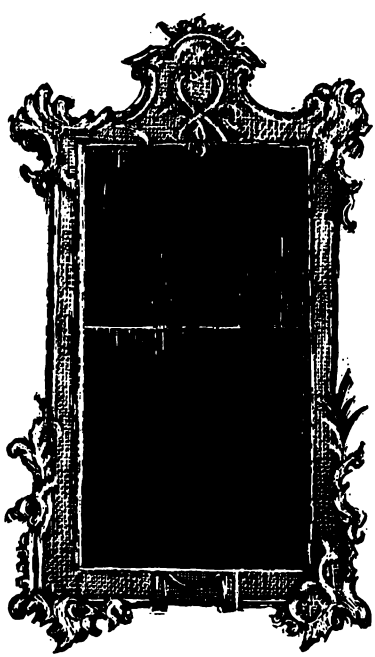

١٢

راحَ الحاكمُ ينتقلُ منْ نافِذَةٍ إلى أُخرى لِيَتَأَكَّدَ مِنْ أنَّ قناديلَهُ التي تُنيرُ الشّوارِعَ كانَتْ مُشتَعِلَةً. هكذا يَفعَلُ كُلَّ لَيلَةٍ. ومَع أنّ القناديلَ كانت مضاءةً دائمًا، حَرَصَ على التثبّتِ مِن هذا.

منَ القَصرِ الشاهقِ الارتفاعِ بانَتْ كَأَنَّها بزورُ لَيمونٍ باهِتَةٌ ومَصفوفَةٌ في صُفوفٍ، حتى يرى المَرءُ مُباشَرَةً إن كانَ أحَدُها مُطْفَأ. لكنَّ ذلكَ لَمْ يَحدُثْ قطّ كما سَلَفَ القَولُ، وهذا أسعَدَ الحاكِمَ بالقَدْرِ نَفسِهِ كُلَّ مَرَّةٍ.

عدا ذلكَ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ الكثيرُ مِمّا يَبعَثُ على السّعادَةِ.

كانت الحاكِمَةُ مَريضَةً، لَمْ تُفارِقِ السَّريرَ. ومع أنَّ الأطباءَ أعلنوا أنّها لا تَشكو من أيِّ علّةٍ، رفضَت النهوضَ.

لا شيءَ سَرّها وروّحَ عنها. لا شيءَ.

جال الحاكِمُ بَينَ الغُرَفِ مُتَفَكِّرًا. كانَ رَجُلًا رَزينًا، لَمْ يفقِدْ رَجاحَةَ عَقلِهِ قطّ، لكِنَّهُ رأى أنَّ الأمرَ زادَ عن حَدِّهِ كثيراً.

فَعَلَ كُلَّ شَيءٍ من غير أن ينالَ أَيَّ شُكْرٍ. ومَضى زَمَنٌ طَويلٌ على آخرِ عِرفانٍ بالجميلِ تَلَقّاهُ. كانَ بِكُلِّ تأكيدٍ الرَّجُلَ الحكيمَ الوَحيدَ على وَجْهِ الأرضِ. وهو الوحيدُ الذي أدْرَكَ ما تَفتَقِدُهُ الحاكِمَةُ.

هي عاجزةٌ عَن التَّمَنّي، هذهِ علّتُها الفعليةُ. أمّا أنْ تَستَوعِبَ ذلك فمُستَحيلٌ!

وكلّما تكلّمَ معها تَنَهَّدَتْ فقَط، أَو زَمجَرَتْ في وَجْهِهِ أو انفَجَرَتْ باكيةً.

لَمْ تَشكُرْهُ على الطِّفلَين. كانَ يَتَعَيَّنُ عليْهِ في الواقعِ أنْ يُعيدَهُما حينَ أبْدَتْ جُحودَها، لولا أنهما أصبَحا يَنتَمْيانِ إلى القَصرِ الآنَ، بَل حتّى أتَى لهُما بمربيةٍ لِترعاهُما. مكتبة ياسمين

نعم، نانا...

تنقّل بَينَ النَّوافِذِ قَلِقًا. صارتْ نانا أيضًا تَنتَمي لِلقَصْرِ، والتَّخَلُّصُ مِنها ليسَ مُمكنًا. والحاكمةُ أدركَت هذا لِحُسْنِ الحَظِّ. ونانا مخلوقةٌ مُمتازةٌ عِندَما لا تنامُ.

تَمامًا، عِندَما لا تَنامُ، عِندَما لا تَنامُ ...

رَدَّدَ الحاكِمُ جملتهُ عِدَّةَ مَرّاتٍ بِجَبينٍ مُقَطِّبٍ.

فقد كانَت نانا قد أخلَدت توًّا إلى النوم. فَتَوَقَّفَتْ الأفكارُ في رأسِهِ. توجّهَ إلى أقرَبِ نافِذَةٍ لِيَعُدَّ بزورَ الليمونِ ثانِيَةً. فاختَلَطَتْ عَليهِ، رآها تَتَقافَزُ، لكِنَّهُ واصلَ العَدَّ مَعَ ذلكَ كيْ يَشغلَ نفسه بشيءٍ ما، بَينما نانا نائمةٌ.

عندَما استيقظَت عادَت إليهِ أفكارُه.

قالت لهُ الحاكِمَةُ شَيئًا لَمْ يَعرِفْ كيفَ يُفَسِّرُهُ. حَدَثَ ذلكَ مُؤَخَّرًا. كانَ كالعادَةِ قَدْ تَضَرَّعَ إلَيْها لتُحاوِلَ تَمَنّي شيءٍ ما، كي تسيرَ الأمورُ على مَا يرامُ ثانِيَةً.

فَجاءَ رَدُّها عندَئذٍ :

– أنتَ في هذه الحالةِ تطلبُ مني الإتيانَ بِسِحْرٍ.

ماذا عَنت بقولِها ذاكَ؟ ليسَ التَّمَنّي والسِّحْرُ الشَّيءَ ذاتَهُ! في المَرَّةِ التّالِيَةِ سَأَلَها لماذا قالَتْ ذلكَ، إلا أنّها ساعَتها اكتفَت بالبكاءِ. ولاحِقًا أعادَ عليها السؤالَ مِرارًا وتكرارًا من غير أنْ يَحصُلَ على إجابَةٍ.

حَتّى أجابَتْهُ أمسِ:

– يا عَزيزي، ما عَنيتُه هو أنّني في حاجةٍ إلى سحرٍ ما يَجعلني قادرةً على التمنّي من جديدٍ في حَياتي!

سِحرٌ! أيُّ نوعٍ مِنَ السِّحْرِ؟ طَلَبَ مِنْها أنْ تبيّنَ ما ترمي إليهِ بِمَزيدٍ مِنَ الوُضوحِ، لكنَّها لَمْ تَقُلْ سِوى:

– أنا أَعني تمامًا ما أقولُ. سِحْرٌ.

لَم يَكن ذلكَ يَسيرًا على الفَهمِ.

بِطَريقَةٍ ما لا بُدَّ لَهُ مِن أَنْ يخمّنَ ذلكَ. تمشّى بينَ النّوافِذِ وأعملَ جهدَهُ في التفكيرِ. كانَتْ أحوالُه عسيرَةً فِعلًا.

غدا المِزاجُ العامُّ في القَصْرِ أكثرَ كآبَةً. وقَدْ تأتّى ذلكَ عن أمرَين:

ببغاءُ نانا البَكماءُ التي تَصرُخُ في نَومِها. والزُّجاجُ الذي عادَ يُحَطَّمُ ثانِيَةً. كانَ ذلكَ مُرَوِّعًا.

كانَ من الوارِدِ أنْ تَصرُخَ مِمي عِدَّةَ مَرّاتٍ في اليوم. الشَّخصُ الوحيدُ الذي لَمْ يُعانِ من صراخِها هو نانا التي لا يوقِظها شيءٌ. وزَعمَت أنَّ مِمي لا تَصرُخُ إلا بسببِ عدمِ رِضاها عَن الطِّفلَينِ، فهي تصرخُ كلّما ارتكبَ الطفلانِ حماقةً ما. هذا على حَدِّ قَولِ نانا. وقَدْ اعترى كلاس وكلارا الخجلُ من جرّاءِ هذا، لأن الصراخَ كانَ مُرَوِّعًا وفظيعًا ونَذيرَ سوءٍ ولا يُطاقُ حتمًا.

كذلكَ تَكَسَّرَ الزُّجاجُ ونانا نائمةٌ. لَيسَ كثيراً، وإنَّما بانتِظام، عِدَّةَ مَرّاتٍ في اليَومِ الواحِدِ أحيانًا. أمّا كيفَ جَرى ذلكَ، فَلُغزٌ تامٌّ، لأنَّهُ لَمْ يَعُدْ يُلقى على الأرضِ. بَل يُهَشَّمُ في مكانِهِ، نَعَم، حَتّى في الخَزائنِ التي يُحْفَظُ فيها الزُّجاجُ، كانوا يعثرونَ عليهِ مُهَشَّمًا في صُفوفٍ أنيقَةٍ.

بدا الأمرُ بِأكمَلِهِ أشبَهَ بِفِعلِ شَبَحٍ. عادَ الحُوذِيُّ إلى التَّجَسُّسِ ثانِيَةً من غير أن يَكتَشِفَ شيئًا أبدًا، مَهما بدّل وغيّر في طريقةِ نَصبِ الفِخاخِ التي لم تقع فيها فريسةٌ واحدةٌ. شَكَّ في كلاس بيدَ أنّهُ لَمْ يُفلِحْ في ضبطِه بالجرمِ المَشهودِ.

بَدَأَ يَشُكُّ في حَواسِّهِ. كانَ يُمكنُ عَمَليًّا أنْ يُكْسَرَ قدحٌ قُبالَةَ أنفِهِ من غيرِ أنْ يَلمَحَ كلاس. رأى أنَّ هذا يفوقُ طاقةَ احتمالِه. شَعَرَ أنَّهُ عَديمُ النَّفْعِ وغَرِقَ في الهَمِّ.

هكذا انقضى ذلكَ الشِّتاءُ، بائسًا وأسوَدَ، لا ثَلْجَ فيهِ، ولا شَمسَ، ولا قَمرَ ولا نُجومَ.

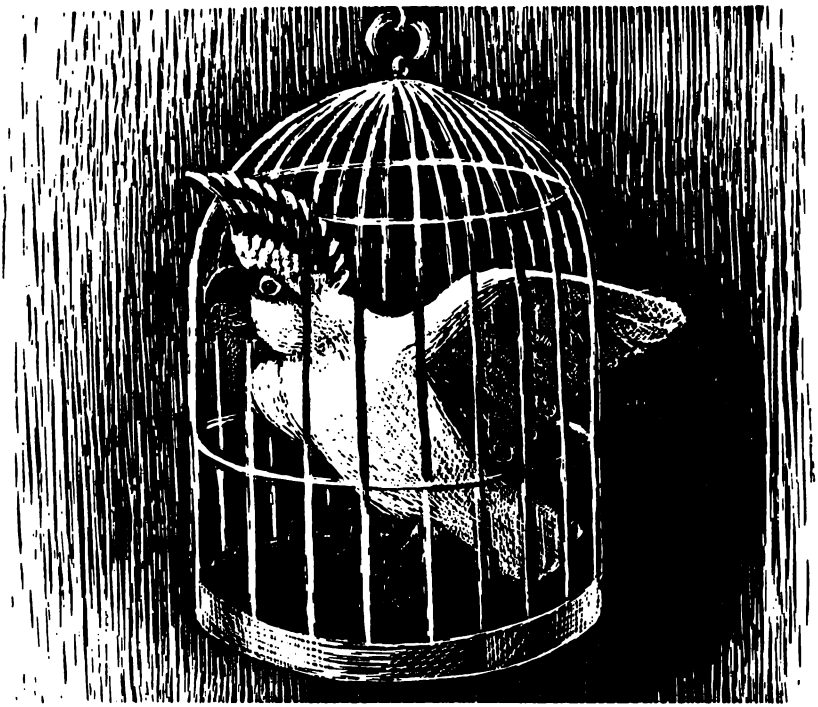

في القَصْرِ تمشّى الحاكِمُ يَعُدُّ القناديلَ، وهناكَ ذرعَ الحُوذِيُّ الأرضَ بدورِهِ عاصِرًا كَفَّيهِ. هناكَ تَسَلَّلَ كلاس وكلارا على السلالِمِ أو في المَمَرّاتِ باحِثَينِ عَن طِفلَيْ المِرآةِ. هناكَ صَرَخَتْ مِمي. وهناكَ أيضًا تَكَسَّرَ الزُجاجُ. بينما نانا مستغرقةٌ في نومِها، والحاكمةُ تَبكي.

١٣

في القَريَةِ، حيث عاشَ ألبرت وصوفيّا، سارَت الحياةُ قُدُمًا.

نفضَت الأشجارُ أوراقَها عنها ثُمَّ اكتست بأوراقٍ جَديدَة، وذَبُلَت الأزهارُ وأَيْنعت ثانِيَةً، وحَلَّقَت الطُّيُورُ راحِلَةً ثُمَّ رجَعت.

أمّا كلاس وكلارا فلَمْ يَعودا مطلقًا.

كانَت صوفيّا تذرعُ الكوخَ جيئةً وذهابًا وهي غارقةٌ في أفكارِها، بينما يقفُ ألبرت في مَشغَلِ الزُّجاجِ لأنَّ عليه أن يعملَ. إلّا أنَّ الأواني التي صنَعها جاءَت دَومًا كالدّموعِ الرقراقةِ. لَمْ تُشْبِهْ إحداها الأُخرى، ولكنَّها جميعًا، وكلّ قطعَةٍ بطريقتِها الخاصّة، ذَكَّرَتْ الناظِرَ إليها بالدُموعِ. كيفَما حاوَلَ ألبرت، انتَهى الأمرُ إلى ذلكَ من غيرِ أن يلاحظَ شيئًا.

وفي الوقتِ نفسِه لَمْ يَعرِفْ لِمَاذا صارَتْ أَوانيه تُباعُ الآنَ في السّوقِ. بل عجزَ حتى عن حملِ ما يكفي من الزّجاجِ ليسدّ الطلبَ. وبذلكَ حقّق شُّهرَةً واسعةً. وصار الناسُ يقطعونَ مَسافاتٍ شاسِعَةً كيْ يشتَروا مِنهُ.

رأى الناسَ يَضربون كفًّا بكفٍّ وهُم يتنهّدون بسببِ جمالِ أوانِيهِ. رَأى ذلكَ بِعَينِ العَجَبِ. كانوا يَلْمَسونَ الأواني بِأَيْدٍ حريصةٍ كما لو أنها من الذّهبِ. ولطالما هزَّ رَأسَهُ مُتَعَجّبًا ممّا يراهُ.

خَمَّن الناسُ أنَّ في الأمرِ سِرًّا، وهذا ما لَمْ يُدْرِكْهُ ألبرت. خَمَّنوا أنَّ الحُزنَ جَعَلَ

أوانيهِ أَجمَلَ. لا اعتِراضَ لَدى النّاسِ على دُموعِ غيرِهِم، ما دامَ مرآها جَميلًا.

ولكنَّ نجاحَ ألبرت لَم يجعلهُ يشعرُ بأيّ سعادةٍ. لَمْ يُدرك أنّه بَدأَ يُصبِحُ نافِخَ زُجاجٍ مَرْموقًا. لَمْ يَرَ انحناءاتِ النّاسِ، وكانَ أصَمَّ حيالَ مَديحِهِمْ.

لَمْ يَشغل فِكرَه شيءٌ سِوى طفليهِ المَفقوديْنِ.

رأى أنَّ الذَّنبَ ذَنبُهُ في اختِفائِهما. لأنّ أحدًا غيرَه لَمْ يَعرِفْ ما دار بينه وبين فْلاكسا ميلدفَيْدر التي تَنَبَّأَتْ باختِفاءِ الطِّفلَينِ، وألبرت سَمَحَ بِحُدوثِ ذلكَ. في البِدايَةِ أصابَهُ الخَوفُ، ثُمَّ الإنكارُ وعدمُ التصديقِ، لِمُجَرَّدِ أنَّ شَيئًا لَمْ يَحْدُثْ فَورًا. كيفَ استَطاعَ أنْ يكونَ بِهذا الغَباء!

وها قَدْ أَغلَقَتْ فلاكسا ميلدفَيدر بابَها في وَجْهِهِ، غَدا عَدَمًا في عَينَيها، لَمْ تَعُدْ تبادِله الكلامَ إطلاقًا. نَعَمْ، أدركَ في سرّه السَّببَ وراء تصرّفِها. ومن جهتها أعلَمت فلاكسا أهالي القَريَةِ أنَّها اعتَزلَت العِرافَةَ إلى الأبَدِ. وما عادَ من المُجدي أن يَقصِدَها أَحَدٌ.

وفي الكوخِ عانَت صوفيّا من تأنيبَ الضَّميرِ نَفسِه.

هيَ التي استَجلَبَت المُصيبَةَ لِعائلَتِها. فَقَدْ حَدَثَ ما حَذَرَتْ عندَما قالَتْ إنَّ الطِفلَينِ مُزعِجانِ أغلَبَ الوَقتِ. وهذا هو العِقابُ. كانتْ تَعلَمُ يَقينًا أنَّ كلماتٍ كهذهِ لا يَقولُها المَرءُ من غير أن ينالَ جزاءَها. عَذَّبَتْها الفِكرَةُ ليلًا ونَهارًا. نَهشتها وهي صاحيةٌ، وفي النّومِ عاوَدَتْها على شكل كابوسٍ. نعم، الذَّنبُ ذَنبُها، هيَ وحدها.

وقد عذّبها شيءٌ آخَر أيضًا. لَمْ تَستَطِعْ أن تَستشفَّ كُنهَه تَمامًا. لكنَّ الشعورَ بأنّها نَسيت شيئًا ما غالبًا ما عاوَدَها؛ شيئًا من المهمّ للغايةِ أن تَتَذَكَّرَهُ.

بَدا لها أنَّها لو استَطاعتْ أنْ تتذَكَّرَهُ، لَعادَ كُلُّ شيءٍ إلى نِصابِهِ. ما الذي نَسِيَتْهُ يا تُرى؟

سارَرت ألبرت بذلكَ أحيانًا، بَيْدَ أنّه اكتفَى دائمًا بهزِّ رأسِه. لَقَدْ اغتَمَّتْ أكثرَ مِمّا يَجبُ، على حَدِّ قَولِهِ، وذاك لا يفيدُ في شيءٍ. ولعلّهُ محقٌّ، إذ رُبَّما كانَ الأمرُ مُجَرَّدَ وَهْمٍ في رأسِها.

مَعَ ذلكَ كثيراً ما بلغت حدّ اليقين للحظاتٍ: نعم، نعم، الأمرُ كذلك! الحَلُّ عندها هي! وَيَجِبُ أنْ تكتشفَهُ!

ثم، يَتَبَخَّرُ اليَقينُ ثانِيَةً بعدَ هنيهةٍ، لِتَشعُرَ بأنَّ الإحباطَ الذي يَليهِ أعمَقُ بِكَثيرٍ.

ما دامَ المرءُ قد نسيَ شيئًا، فلا بُدَّ حَتْمًا من أنَّهُ يعْرِفُ ما هوَ، كما اعتادَ ألبرت أنْ يَقُولَ. وصوفيّا لَيست إلا ضَحِيَّةَ أوهامِها فقَط لا غيرَ.

في إحدَى الليالي أفاقتْ صوفيّا وَقَلبُها يَخفقُ بِشِدَّةٍ. كانت قَد غَرِقَتْ في النَّومِ وَحَلُمَتْ بِشَيءٍ، لكِنَّها لَم تستَطِعْ تَذَكُّرَ الحُلُمِ.

دَفَعَها قَلَقٌ مبهمٌ إلى أن تغادرَ السريرَ، وقَلبُها يَخْفِقُ بِعُنفٍ، ومِن غير أن تدركَ ماذا تفعل توجّهت نحو المَهْدِ الصَّغيرِ الذي بقيَ مُعَلَّقًا في السَّقفِ أمامَ الموقدِ. كانَ يحتوي على الكثيرُ مِنَ المُهمَلاتِ. وبينما هي تَبْحَثُ بَحثًا محمومًا بدُونِ أن تَعرِفَ عَن ماذا، تَدَلَّتْ جَديلَةُ كَتّانٍ تُشِعُّ صُفْرَةً.

فَجْأَةً لامَسَتْ يَدُها شيئًا صَلبًا، باردًا. التقطتهُ ومضَت إلى النّافِذَةِ. جَلَسَتْ حَيثُ أَلقى القَمَرُ نورَه في الغُرفَةِ، ويَدُها تقبضُ على ذلكَ الشَّيءَ.

الخاتَمُ الذي جاءَها هديةً من ألبرت في السُّوقِ. الخاتَمُ ذو الحَجَرِ الأخضَرِ.

آهِ، لَقَدْ مَضى زَمَنٌ طويلٌ على ذلك ...

تَخَتَّمَتْ بِهِ وَجَلَسَتْ تتأمّلُ يَدَها مُمعنةً في التَّفكيرِ.

شَعَرَتْ بِنَفسِها أهدَأَ آنَئذٍ، واستكانَت تَحتَ ضَوءِ القَمَرِ تَتَذَكَّرُ. كانَ السُّوقُ رائعًا في تِلكَ المَرَّةِ. كَم استَمتَعا هِيَ وألبِرت، كَم استَمتَعا ...

لِماذا امتنَعت عن وضعِ الخاتَمِ؟ يا لِحماقَتِها... وهو الذي يبدو غايَةً في الجَمالِ، كانَ عَلَيها أن تلبسهُ.

كانَ لطيفًا مِن ألبرت أنْ يهديَها الخاتَمَ، على الرّغمِ من عُسرِ حالِهِ آنذاك. أدارَت الخاتَمَ ذاهِلَةً، وغَمَرتْها الأفكارُ لِبُرهَةٍ.

فَجْأَةً رَمَقَت الخاتَمَ.

ها قَد تَذَكَّرَتْ سَبَبَ تخلّيها عنه ... لَقَدْ أَقلقَها.

تمامًا كما هي حالُها الآنَ. مَرَّةً أُخرى ألحّ عليها ذلكَ الشُّعورُ الغريبُ بأنَّ الحَجَرَ يشبهُ عَينًا، وأنَّ العَينَ راقَبَتْها كلّما تحلّت بالخاتمِ.

خُيّلَ إلَيها أنَّ العينَ قد طرفَت، وللحظةٍ لم تَجرُؤْ على الإتيانِ بحركةٍ.

.ثُمَّ رَفَعَتْ يَدَها تَحتَ ضوءِ القَمَرِ لِترى بِوُضوحٍ. تَيبّست وأخذَت ترتَعِدُ خَوفًا. كانَ للحَجَرِ لَمَعانٌ أَرعَبَها، عميقٌ كَهاوِيَةً، رَهيبُ الحُزنِ وليسَ بَشَرِيًّا على الإطلاقِ.

بَعْدَ بُرهَةٍ عادَت العينُ وطرفَت. كانَ ذلكَ مَهولًا.

خَلَعَت الخاتَمَ بِسُرعَةٍ وَرَمَتْ بِهِ إلى النّافِذَةِ. لَمْ تَجْرُؤ على مُعاوَدَةِ النَّظَرِ إلَيهِ. وخَفَقَ قَلبُها بِعُنفٍ. ما مَعنى ذلك؟ أَفقَدَتْ عَقلَها؟

نَأت بأفكارِها إلى الشيخِ الذي باعَهُما الخاتَمَ. كانَ شيخًا مخيفًا. أتراه قَدْ حَوَّلَ الخاتَمَ إلى خاتَمٍ سِحْرِيٍّ؟

لا، عليها أن تَهدَأَ، لَيسَ الأمرُ أكثرَ مِنْ أنَّها جَلَستْ هناكَ مَعَ أوهامِها ثانِيَةً.

ولكن لا ريبَ في أنّ هناكَ سرًّا ما في ذلكَ الشيخِ المُسنّ! أينَ اختَفى بَعدَئذٍ؟ لَمْ يَرَوهُ في أحَدِ الأسواقِ قطّ، لا مِنْ قَبْلُ ولا مِنْ بَعْدُ.

وماذا عَنْ فلاكسا ميلدفَيدر؟ لِماذا تَصَرَّفَتْ بِتلكَ الغرابَةِ عندَما وَقَعَ بَصَرُها على الخاتَمِ؟ كيفَ حدثَ ذلك؟

أَلَمْ تَرغَبْ تلكَ العجوزُ في الخاتمِ لِنَفسِها؟

دَخَلَتْ صوفيّا علَيها كي تستَكشِفَ طالِعَها، ولكنَّ فلاكسا رفَضت

استقبالها... ماذا حَدَثَ بَعدَ ذلكَ يا تُرى؟

نَعَم، ماذا جَرى لاحِقًا؟

ها قَدْ عادَ ذلكَ اليَقينُ إلى صوفيّا، اليقينُ بأنَّها وَحدَها تملكُ الحَلَّ. وأَشَدَّ مِنْ أيَّ مَرَّةٍ سَبَقَتْ سيطرَ عليها الشعورُ بأنَّ الحلَّ هُنا، ما علَيها سوى أن تَمُدَّ يَدَها...

أينَ... أين؟ لوّعها السؤالُ، بينما جَلَسَتْ ساكِنَةً تنتظرُ. ومِن غير أن تَعيَ ما تفعَل، مَدَّتْ يَدَها إلى الخاتَمِ ثانِيَةً، وأخَذَتْهُ.

عندَئذٍ عادَتْ إلَيها ذاكِرَتُها! صعقَةٌ هزّت كيانَها كأنّها هديرُ الرّعدِ. إنَّها تَعرفُ الآنَ ما غابَ عنها. نَعَم، الآنَ تَعرفُ!

أخذت نَفَسًا عَميقًا وضوءُ القَمَرِ يرتَعِشُ.

ولآخرِ مَرَّةٍ تَترُكُ نَظرَتَها تَغرَقُ في الحَجَرِ الأخضَرِ، تغرقُ عَميقًا فيهِ. وَمِنْ بَعيدٍ تَتناهى إلى سَمْعِها كلِماتُ فلاكسا ميلدفَيدر المَنسِيَّةُ، وعلى شفتيها تَتَشَكَّلُ الكلمات من غير أن تنطقَ بها.

- «إصبَعُكِ يَحمِلُ خاتَمًا يا صوفيّا. إذا أصابَتْكِ مُصيبَةٌ في يومٍ ما، علَيكِ أن تُرسلي لِيَ الخاتَمَ، وسأُساعِدُكِ، أينَما كُنتِ. لا تَنسَيْ كلامِي! أرسلي لِيَ الخاتَمَ!»

تَرتَعِشُ صوفيّا قليلًا لِتلكَ الذِّكرى وَتُقَبِّلُ الخاتَمَ.

تَنهَضُ بَعدَ هُنَيْهَةٍ، تَرتَدي ملابِسَها، وتَخرُجُ تَحتَ نورِ القَمَرِ. القَريَةُ غارِقَةٌ في النَّومِ. أمّا في أعلى رَبْوَةِ الجَلّادِ فَلاحَ ضَوءٌ خافِتٌ مِن نافِذَةٍ تَحتَ شَجَرَةِ التُّفّاحِ.

وبُومَةٌ تَنْعَقُ.

شَجَرَةُ التُّفّاحِ مُزْهِرَةٌ. ونَسيمُ اللّيلِ يَتَهادى عَلى التَّلَّةِ، فَتَسَقُطُ أوراقُ الزَّهْرِ كَنُدَفِ الثَّلْجِ.

يَرْتَعِشُ الضَّوءُ هناكَ في الأعلَى.

لا تسمعُ البُومَةُ جوابًا على نَعيقها، فَتَنعَقُ ثانِيَةً.

تَسيرُ صوفيّا تحتَ القَمَرِ والخاتَمُ مَعَها، هي لا تتختمُ به، ولكن يدَها، يدَها تقبضُ عليه بحرصٍ...

١٤

كانَ الوقتُ قَدْ تَجاوَزَ مُنتَصَفَ الليلِ.

جَلَسَتْ فلاكسا ميلدفَيدر في كُوخِها، عاكفةً على نَسيجِ سَجّادَتِها. حَدَّقَتْ في شَكْلِ السَّجّادَةِ مَشغولَةَ الفِكْرِ وَكَأَنَّها تَبْحَثُ عَنْ شيءٍ ما هناكَ. كانَت الشَّمْعَةُ قَد ذابَتْ تَقريبًا في الشَّمعِدانِ، فحملَتها وسلّطت بَصيصها على النسيجِ، فارتَعَشَ لهُبُها بِشِدَّةٍ.

وعلى النَّولِ حطّ الغُرابُ الأسحَمُ كْلُوكة ينظرُ إلى الخارِجِ من النّافِذَةِ، مُراقِبًا زَهرَ التُّفّاحِ الذي تهادى وهو يتساقطُ بليونةٍ وجمالٍ تحتَ شعاع القمرِ، ويستمعُ في الوقتِ نفسِه إلى البومةِ الناعقةِ.

أعادَتْ فلاكسا الشَّمْعَةَ إلى مَكانِها وهيَ تتنهّدُ حَسرةً. نَقَلَ كلوكة نَظْرَتَهُ نَحوَ القمَرِ بينما التفَتت فلاكسا تتطلّعُ إليه.

– أَتَجلِسُ ناظِرًا إلى القَمَرِ يا كلوكة؟ سَأَلَتْهُ بهدوءٍ.

– نَعَم، أجابَ كلوكة، ولكنَّني لا أراهُ.

– لا، أنتَ ترى الشَّمسَ فَقَطْ، قالَت فلاكسا وَمَسَحَت بِيدِها على نسيجِها وهي مسترسلةٌ في أفكارِها. بَعدَ بُرهَةٍ سَأَلَته:

– لَقَدْ ذَهَبْتَ إلى مدينَةِ الأماني، لماذا ليسَ لي أنْ أعرِفَ ما تَبدو عليه؟

بَقيَ كلوكة على جلسَتِهِ السّابقَةِ وعَيْنُهُ نَحوَ القَمَرِ. لَمْ يُجِبْ.

– أرسَلْتُكَ لأنَّني أرَدْتُ أن أعرِفَ ما سَترى هناكَ، قالَت فلاكسا ميلدفَيدر ونَقَلَتْ الشَّمْعَةَ من مكانها بقَلَقٍ ثانِيَةً.

بَعدَ شَيءٍ مِنَ التَّرَدُّدِ أجابَ الغُرابُ الأسحَمُ بأنَّهُ لَمْ يَرَ شيئًا سوى الطِّفلَينِ. عندئذٍ عايَنته فلاكسا بنظرةٍ مُفعمةٍ بالكَدر.

– لا شيءَ إطلاقًا؟ سألَتْهُ.

لا، لَمْ يَرَ كلوكة شيئًا. بَدا عليهِ الانزعاجُ، ولم تُعاود فلاكسا طرحَ الأسئلةِ

عليه أكثرَ ممّا فعلَت، إلا أن الهمَّ طغَى عَليها.

كانتْ تَعرِفُ ما معنى ألاّ يَرى كلوكة بِعَينِهِ الطَّيّبَةِ. لا شيءٌ خيّرٌ وجميلٌ هناكَ لِيراه، وَلِذا لَمْ يُبصر إلا الطّفلينِ. وَبِخَوفٍ تساءلَتْ عَمّا كانَ سَيراهُ لو أنَّ عينَه الأخرَى سَليمة. العينُ التي ترَى شرورَ العالَمِ.

أَطبَقَ عَلَيها قَلَقٌ مُباغِتٌ، والتَقَطَتْ لِفافَةَ وَرَقٍ صغيرَةً كانَتْ مُلقاةً على الأرضِ، عثرَ عليها كلوكة قبلَ فَتْرَةٍ. ورقةُ إعلانٍ وَجَدَها مُلصقةً على شَجَرَةٍ في الطَّريقِ.

وَلَقَدْ قَرأَتْها فلاكسا عِدَّةَ مَرّاتٍ، وقَرأَتْها الآنَ ثانِيَةً بنفورٍ مُتَفاقِمٍ. مَخطوطٌ عَلَيها بِحُروفٍ مُزَخرَفَةٍ:

ساحِرَة

مُسِنَّةٌ يا حَبَّذا، سُلَيْمانِيَّةٌ، ضَليعَةٌ في التَّنجيمِ

وفي فنونِ السِّحرِ الأخرى، مطلوبَةٌ فَورًا.

سَكَنٌ خاصٌّ فيهِ مِسبارُ نُجومٍ.

– الحاكم –

لِماذا جاءَها كلوكَةُ بها؟ ليسَ هناكَ ما هُو أكثر مِنْ تِلكَ الإعلاناتِ على اختلافِ فحواها مُلصَقة على الأشجار على طولِ الطّريقِ. وما كانَ مِنْ عادَتِهِ قطُّ أن يُوليها اهتمامَهُ.

ما علاقَتُها هِيَ بهذا؟

لَقَدْ أرسَلَت الغُرابَ الأسْحَمَ إلى مَدينَةِ الأماني ليأتيَها بالأخبارِ، فإذا بِهِ يعودُ ولا شيءَ لَديهِ ليُخبِرَها بِهِ. أتراهُ أخفى عَنها شيئًا؟ لَقَدْ غَدا مُحبًّا للصمتِ بطريقةٍ غريبةٍ.

على أيِّ حالٍ، فَكَّرَتْ أنْ لا بأسَ بكلِّ ذلكَ. وانتَفَضَتْ نَفسُها بِأقصَى قوّتِها ضِدَّ الفِكرَةِ. ثُمَّ رَمَتْ لِفافَةَ الوَرَقِ مِنْ يَدِها بعنفٍ غَيرِ مُعتادٍ.

- سُلَيْمانيَّةٌ، قالَتْ لِنَفسِها ونَدَّت عَنْها ضِحكَةٌ ساخِرَةٌ، وما تِلكَ؟

- حَكيمَةٌ كالمَلِكِ سُلَيْمان، أوضَحَ كْلوكَة حالًا.

- نَعَمْ، نَعَمْ قالَتْ فلاكسا بِصَبرٍ نافِدٍ، لَستُ ذاهبَةً في جميعِ الأحوالِ. عندَما يُعجزني التفكيرُ سأَسمَعُ مِنكَ طَلَبًا للمعرِفَةِ.

ولكنَّ الغُرابَ الأسحمَ أجابَ بِهُدوءٍ:

- البَصَرُ أصدَقُ مِنَ السَّمعِ.

- وأنتَ مَنْ يقولُ ذلكَ أيضًا ...

- للحكيمِ سَمْعٌ مُرْهَفٌ وَلِسانٌ قَصيرٌ، قالَ الغُرابُ وَدَسَّ رأسَهُ تَحتَ جَناحِهِ إشارَةً إلى أنَّ الحوارَ انتَهَى بالنّسبَةِ إليهِ. ولكنَّ فلاكسا هَزَّتْ رأسَها، بدا واضِحًا أنَّ كلوكة يُحاولُ لِسَبَبٍ ما دَفْعَها إلى الذَّهابِ إلى مَدينةِ الأماني، بيدَ أنّها لَمْ تَرْغَب في ذلكَ.

تَنَهَّدَتْ وطَأْطَأَتْ رأسَها تنظرُ إلى نَسيجِها. لَمْ تَجِدْ أيَّ سَعادَةٍ في النَّسْجِ، كانَ الشَّكْلُ الذي تشتغلُ عَلَيهِ مُحيِّرًا ويزدادُ صعوبَةً مَعَ كُلِّ يَومٍ يَمُرُّ. أقلَقَها ذلكَ كثيرًا، وفاقَ قدرتَها على التحمّلِ. كانَ أصعبَ شَكْلٍ عكَفت على نَسْجِهِ.

بَدا كلوكة راغِبًا في النَّومِ، بينَما غَرِقَتْ فلاكسا في خضمِّ أفكارها. ارتَعَشَ

لَهَبُ الشَّمعَةِ. وَمَضَتْ فترةٌ من الوقتِ.

عِندَئذٍ نعقَت البُومَةُ من جديدٍ.

انتَفَضَ كلوكة ورَفَعَتْ فلاكسا ميلدفَيدر بَصَرَها عن نَسيجِها، تبادَلا النَّظرَ وأصغَيا. لا شيء هناكَ سوى الصَّمتِ.

بعدَ ذلكَ مُباشَرَةً طُرِقَ البابُ بقُوّةٍ؛ طُرِقَ عِدَّةَ طَرَقاتٍ.

بَقيا جالسين بلا حراكٍ حيث هما بينما طُرِقَ البابُ ثانيةً طَرَقاتٍ لا تَنقَطِعُ. لا يَتَحَرَّكُ الغُرابُ، أما فلاكسا فتَنهَضُ بِبُطءٍ وتَذهَبُ كَيْ تَفتَحَ. تَسيرُ بِخُطى ثَقيلَةٍ مُتعَبَةٍ، والطَّرْقُ لا يتوقّفُ كأنَّ حياةَ الطّارِقِ مرهونةٌ بِهِ. تَتَّكِئُ فلاكسا بُرْهَةً على البابِ قَبلَ أنْ تَسْحَبَ المِزلاجَ والخواطرُ الغريبةُ تنهشُها. في داخِلِها صِراعٌ ملؤهُ الحَيْرَةُ. اللَّيلَةَ لا هُدوءَ لِقُوى العَتَمَةِ، هكذا تَشْعُرُ، وهيَ لا تَدري بَعدُ إذا ما كانتْ تِلكَ القُوى تَحتَ سيطَرَتِها.

البابُ يُطرَقُ بِشِدَّةٍ. فَتَفتَحُ.

مَعَ فَتْحِ البابِ يَندَفِعُ تَيّارٌ مِنْ شُعاعِ القَمَرِ إلى الدّاخِلِ. وفي الخارِجِ تَقِفُ صوفيّا، زوجَةُ نافِخِ الزُّجاجِ. تقفُ لاهثةً وشاحِبةً جدًّا.

نورُ القَمَرِ ساطِعٌ، وهما تتبادلان النظرَ بلا كلامٍ، وتحاولُ كلّ منهما قِراءةَ وجهِ الأخرى.

ثُمَّ تَمُدُّ صوفيّا يَدَها بِسُرعَةٍ.

– ها هوَ، تقولُ لاهِثَةً، الخاتَمُ...

لا تَرُدُّ فلاكسا ميلدفيدر. لكنَّها تأخذُ الخاتَمَ. تَنظُرُ إلَيهِ وتَدُسُّهُ بِسُرعَةٍ في جَيبِ تَنّورَتِها.

تَلتَقي عُيونُهُما ثانِيَةً، عَينا صوفيّا مُستديرتان، داكِنتان، مَشحونتان بالتوسّلِ، وعَينا فلاكسا لَيسَتا نَضرَتَينِ وزَرقاوَينِ كالفيرونيكا على عادَتِهما.

رُبَّما هوَ القَمَرُ ما يَجعلُ نَظرَتَها مُذهِلَةَ القُوَّةِ وخطيرةً كما هي الآنَ. شيءٌ ما فيها لَمْ يَكُنْ على عَهدِهِ في هذه اللَّحظَة. كَأَنَّ هَيئتَها كُلَّها تتغيرُ لِتَأْخُذَ شَكلًا منَ أشكالِ الغُموضِ، مِنْ السِّرِيَّةِ المُكَثَّفَة. تَشعُرُ صوفيّا بذلكَ فتعتملُ نفسُها بالتَّوَجُّسِ والطُّمأنينَةِ مَعًا. فَكَّرَتْ طبعًا أن تذكّر فلاكسا بِوَعْدِها، لولا أنَّ الكلماتِ ماتتْ على شَفَتَيها، أَدركَتْ أنْ لا حاجَةَ هناكَ للكلماتِ.

تومئُ برأسِها فَقَطْ، وتَستَديرُ وَتَعْدو نازِلَةً التَّلَّةَ تَغمُرُها سَعادَةٌ لا يُمكِنُ تفسيرُها. هنالكَ أَمَلٌ... المُعجزاتُ تَحدُثُ... الآنَ وفي كُلِّ آنٍ.

تَترُكُ فلاكسا ميلدفَيدر البابَ مَفتوحًا على مِصراعَيْهِ وَتَعودُ إلى الغُرفَةِ وفي إثْرِها ينبَسِطُ نورُ القَمَرُ.

كانت الشَّمْعَةُ على وَشَكِ الانطِفاءِ بَينَما دَسَّ كلوكة رأسَهُ تَحتَ جناحِهِ ثانِيَةً. وَقَفَتْ فلاكسا بُرهَةً تَتَأَمَّلُهُ.

ثُمَّ مَضَتْ إلى نَسيجِها واتَّبَعَتْ بِإصبَعِها الطَريقَ المُتَعرِّجَةَ لِأَحَدِ الخُيوطِ الدّاكِنَةِ عَبرَ الشَّكْلِ. استَعادَتْ هُدوءَها وتَحَرَّكَتْ شَفتاها مُشَكِّلَةً كلماتٍ جميلَةً مُلْغِزَةً. ما عادَ في الشَّكْلِ شيءٌ يُحَيِّرُها، فَكُلُّ شَيءٍ أصبحَ جَليًّا ويسيراً جدًّا على الفَهمِ.

اتَّبَعَتْ الخُيوطَ خَيطًا فَخَيطًا بإصبَعِها، وانبَعَثَتْ مِنَ الخيوطِ قُوَّةٌ سِرِيَّةٌ غمرتها حَتّى غَلَبَتْ كُلَّ شَكٍّ. اعتدلَت واقفةً، ونَظَرَتْ مُجَدَّدًا إلى كلوكة. نعم، كانَ مَعَهُ حَقٌّ. أَخَذَتْ لِفافَةَ الوَرَقِ الصَّغيرَةَ وَرَمَتها بِحَزْمٍ في النّارِ التي تأَجَّجَتْ للَحْظَةٍ.

– نُغادرُ إذًا يا كلوكة، قالَت للغُرابِ الأسحَمِ النّائمِ وهي تحملُه إلى قفصِه. وَلَمْ يَتقلقَل نَومُهُ.

ارتَدَتْ مِعطَفَها البيلّيرين، وقبّعَتها المَعهودة. لم تَكن بحاجةٍ إلاّ إلى حقيبتِها الغريبةِ وصُرّةٍ فيها وعاءانِ زُجاجيّانِ مَلْفوفانِ بالخِرَقِ، وإلى القفصِ كذلكَ.

وللمَرّةِ الأخيرةِ جالت بنظرِها في أرجاءِ الغُرفَةِ وَوَقَفَتْ تَتَأَمَّلُ ساكِنَةً حَتّى ذابَت الشَّمْعَةُ تَمامًا، وانطَفَأَتْ في شَمعدانِها وخَبَتْ نارُ الموقدِ.

عندَئذٍ غادرتِ الكوخَ. أوصَدَت البابَ وخَطَتْ خارِجَةً إلى التَّلّةِ بِرِفقَةِ كلوكة النّائمِ في القَفَصِ. ابتَسَمَتْ.

واختَفَيا على الفَورِ في سَماءٍ منْ زَهرِ التُّفّاحِ ونورِ القَمَرِ.

١٥

لمّا علمَ الحاكِمُ أنَّ فلاكسا ميلدفَيدر قد وصَلَتْ إلى القَصْرِ، ذهَبَ بِنَفسِهِ لِيَستَقبِلَها.

– أهلًا وَسَهلًا، آنستي الكَريمَةَ، قالَ بِلُطْفٍ بالغٍ على الرّغمِ من انزعاجِهِ قليلًا لاضطِرارِهِ إلى الاستعانةِ بشَخصٍ مِثل فلاكسا ميلدفَيدر. رَأى أنَّ هذا يحطُّ مِنْ قَدْرِهِ، وحاوَلَ أنْ يُخَفِّفَ وَقعَ الأمرِ بالدُّعابَةِ.

– ليسَ لَدَينا كنيسَةٌ ولا مَسرحٌ هنا في مَدينَتِنا، لذلكَ عَلَينا أنْ نُرَوِّحَ عَنْ أَنفُسِنا بِقليلٍ مِنَ السِّحرِ إلى أجَلٍ غيرِ مُسَمّى، قالَ ضاحِكًا ضحكَتَهُ الجافَّةَ المُقتضبةُ.

نَظَرَتْ إلَيهِ فلاكسا؛ بِعَينِ الفيرونيكا، ولَمْ تَقُل شيئًا. ولأوَّلِ مَرَّةٍ في حياتِهِ اضطَرَبَ. جَعَلَتْهُ هذهِ المَرأةُ العَجيبَةُ يَتَكَلَّمُ أكثرَ ممّا أرادَ.

– لَم يَعُدْ هناكَ الكثيرُ مِمَّن يُتقنونَ فنونَ السِّحرِ، قالَ بنبرة مرتبكةٍ، لَمْ يَعُدْ مُمكنًا أن يحظى المَرءُ بساحِرٍ مِنَ الطِّرازِ القَديمِ...

ثم سكتَ فجأةً، فَتلكَ العَجوزُ الرَّهيبَةُ تَنظُرُ إلَيهِ بِعَينَينِ لا تنفكّانِ تزدادانِ زُرْقَةً، أكثرَ فأكثرَ.

– شَخصيًّا ليسَ لَدَيَّ أدنَى اعتِراضٍ على النِّساءِ السّاحِراتِ، أضافَ باستِعلاءٍ، أبَدًا وَلكِنْ...

سارَ بِضْعَ خُطواتٍ إلى الأمامِ والخلفِ مُتَظاهِرًا بالتفكيرِ. وَقَفَتْ العَجوزُ هناكَ مُبتَسِمَةً. ما الذي يَدعو إلى الابتسامِ الآنَ؟ عَلَيْهِ أنْ يَقولَ شَيئًا حَتّى تَفْهَمَ أنَّهُ لَيسَ شَديدَ الانبهارِ بفُنونِها.

– إنَّها فِكرَةُ الحاكِمَةِ كُلِّيًّا، قالَ، لأنّني كُنتُ على الأرجَحِ أُفَضِّلُ الإتيانَ بِمُهَرِّجٍ صغيرٍ، على الرَّغمِ مِنْ أنَّ هؤلاءِ أيضًا صَاروا عُملَةً نادِرَةً لو صَحَّ التَّعبيرُ...

– آهِ حَقًّا؟ قالت فلاكسا ميلدفَيدر، لَمْ أُلاحِظْ هذا.

تلكَ كانتْ أُولى الكَلِماتِ التي نَطَقَتْ بِها، فَصَمَتَ الحاكِمُ على الفَورِ.

هوَ الذي لَمْ يُزْعِجْ نَفسَهُ قطّ بالتَّفكيرِ في أنْ يَكونَ لَهُ رَأيٌ في النّاسِ خيراً كانَ أم شَرًّا، ولَطالما تباهَى بأنَّهُ «أحَبَّ النّاسَ جميعًا»، ها هو يشعرُ أنَّهُ يَمقُتُ هذهِ العَجوزَ. فَضَّلَ أنّ يَقودها إلى البَوّابَةِ حالًا، ولكنَّها سَتَمْكُثُ رضاءً لَعَيني الحاكِمَةِ.

صَعِدَ وإيّاها ليريَها البرجَ حيثُ تَقَعُ غُرفَتُها، وبالفِعلِ كانَ في الغُرفَةِ مِسبارُ نُجوم. بحَركةٍ لطيفةٍ بيّنَ لها باختصار أنَّها إذا احتاجَتْ شيئًا آخرَ، ما عَلَيها إلا أنْ تَطلُبَهُ. ثُمَّ تَهَيّأَ للذَّهابِ، وإذا بفلاكسا ميلدفَيدر تستوقفهُ.

– أتَمَنّى لو عَلِمتُ ما الذي تَتَوَقَّعونَ مِنّي فِعلَهُ، قالَت.

رَفَعَ الحاكِمُ حاجِبَيْهِ.

– ألَمْ أخبركِ؟ حَسنًا، مُهِمَّتُكِ بالطَّبْعِ أنْ تَحمِلي الحاكِمَةَ على التَّمَنّي.

– التَّمَنّي؟ وما الذي سَتَتَمنّاهُ؟

– أيَّ شَيءٍ طَبْعًا. إنَّها تَرفُضُ، وتَقولُ إنَّ الأمرَ يَتَطَلَّبُ سِحراً لِجَعلِها تَتَمنّى شيئًا آخرَ في الحياةِ. إيه، هذا بالطَّبْعِ مَحضُ هُراءٍ، إلا أنه سببُ حضورِكِ إلى هُنا.

ذرعَ الأرض جيئةً وذهابًا بصبرٍ نافدٍ بَينَما تَكَلَّمَ. بدا واضحًا أنّه رأى أنَّ علَى فلاكسا ميلدفيدر أنْ تَفهَمَ بدُونَ هذا الكَمّ مِنَ الإيضاحاتِ.

– أينَ يُمْكِنُني أن أُقابِلَ الحاكِمَةَ؟ سألَتْ فلاكسا.

– في غرفَتِها طبعًا. أجاب ودلّها على موقعِ تلك الغرفةِ. ثُمَّ حَيّاها باقتِضابٍ وَذَهَبَ. عندَ البابِ التَفَتَ قائلًا والضَّجَرُ بادٍ عَلَيه:

– تَذكَّري الآنَ أنَّ مُهِمَّتك تقتصرُ على جعلِ الحاكِمَةِ تتمنّى شيئًا ثانِيَةً، بِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ ماهيَّةِ الأُمْنِيَةِ. ثُمَّ سَأُحَقِّقُ أنا الأماني طَبْعًا. أَهذا واضِحٌ؟

– تَمامًا، أجابَتْ فلاكسا ميلدفَيدر وهي تَبتَسِمُ ابتسامَةً عَجيبَةً جَعَلَت الحاكِمَ يُغلِقُ البابَ بِسُرعَةٍ.

أَنزلَتْ فلاكسا قفصَ كلوكة الذي قبعَ ساكِتًا طوالَ الوَقتِ، لكنَّ ذلكَ لَمْ يَعنِ عَدَمَ اكتِراثِهِ. أَطلَقَت الغُرابَ الأسحَمَ وَسَأَلَتْهُ عَنْ رأيِهِ في الحاكِمِ.

طارَ كلوكة وَحَطَّ على المِسبارِ قبلَ أن يُجيبَ. ثُمَّ أجابَ حائرًا:

– لَيسَ الجميعُ سَواسِيَةً في الحِكمَةِ. البُحَيرَةُ الصغيرَةُ صغيرَةُ الشّاطِئِ. أَليسَ كَذلكَ؟

– صحيح، قالَتْ فلاكسا. أَظُنُّ الأمرَ كما تَقولُ.

ثُمَّ اتَّفَقَتْ مَعَ الغُرابِ على أن يَطيرَ في أرجاءِ القَصْرِ لاستكشافِهِ، بَينَما تَزورُ هيَ الحاكِمَةَ.

– نَعَم، قالَت الحاكِمَةُ مُتَثائِبَةً عندَما دَخَلَتْ فلاكسا ميلدفَيدَر عليها الغُرفَةَ. أشاحَتْ بِوَجْهِها بلا مُبالاةٍ وتابَعت من غيرِ أنْ تَنظُرَ إلَيها: الآنسةُ ميلدفَيدر كما فَهِمْتُ. تَفَضَّلي بالجُلوس!

استَلْقَتْ في سريرِها مُتَّكِئَةً بِظَهرِها على الوسائدِ وأَشارَتْ بِيَدٍ مُتْعَبَةٍ إلى أَحَدِ الكَراسي. جَلَسَتْ فلاكسا بدونَ أن تتفوَّهَ بِكَلِمَةٍ، فقالَت الحاكِمَةُ بِصَوتٍ ضَجِرٍ:

– لَقَدْ أَتَت الآنسةُ إلى هُنا لِترفِّهَ عَنّي بِفُنونِ سِحرِها، كما فَهِمتُ، ولكنْ لا داعِيَ لِذلكَ! فَلْتَفعَل ما يَرُوقُ لَها عَدا مُمارسَةَ السِّحْرِ! لأنَّني لَنْ أقوى على احتِمالِ ذلكَ!

أغمَضَتْ عَينَيها.

– ليست الحياةُ بهذهِ السُّهولَةِ، حتّى يُعالِجَ المَرءُ مشاكِلَهُ بِشَيءٍ مِنَ الشَّعوَذَةِ، ولكِنَّ ذلكَ مِمّا لا تَفْهَمُهُ الآنسةُ، ولا أَحَدَ غَيرها يفعلُ أيضًا...

صمَتَتْ، ولَمْ تَقُلْ أَيٌّ مِنْهُما شيئًا لِمُدَّةٍ طويلَةٍ. نَظَرَت فلاكسا بِثَباتٍ إلى الحاكِمَةِ التي استَلقَتْ هناكَ بِجمالِها الأخّاذِ وعينَيها المُطبَقَتَينِ. حتّى تلكَ اللحظةِ لَمْ تَتعطّف الحاكمةُ على فلاكسا بِنَظرَةٍ واحدةٍ مِنها، استَلقَتْ بلا حِراكٍ. ثم عادت تتكلّمُ من جديدٍ:

– ليستْ الآنسةُ ميلدفيدر ثَرثارَةً بِطَبْعِها. فهي لَمْ تَقُلْ أيَّ شيءٍ حَتّى الآنَ.

– أنا أُحَدِّثُ مَنْ يَنظُرُ إلَيَّ فَقَطْ، أجابَتْ فلاكسا بِهُدوءٍ.

أتت الحاكِمَةُ بِحَرَكَةٍ ضعيفَةٍ مِن يَدِها من غيرِ أنْ تَرفَعَ بَصَرَها.

– هَذا جميلٌ، قالَتْ بِتَؤدَةٍ. إذًا على الآنسةِ أن تَستَمِعَ إلَيَّ، ولا حاجَةَ بي إلى النَّظَرِ أو الاستِماعِ إليها. أليسَ ذلكَ مُحبِطًا للعارِفِ بالسِّحرِ؟

– على العَكسِ، قالَتْ فلاكسا ميلدفيدر، فكلُّ شيءٍ عَلى ما يُرامُ تَمامًا.

عِندَئذٍ غَطَّتْ الحاكِمَةُ فَمَها بِيَدِها وتَثاءبَتْ.

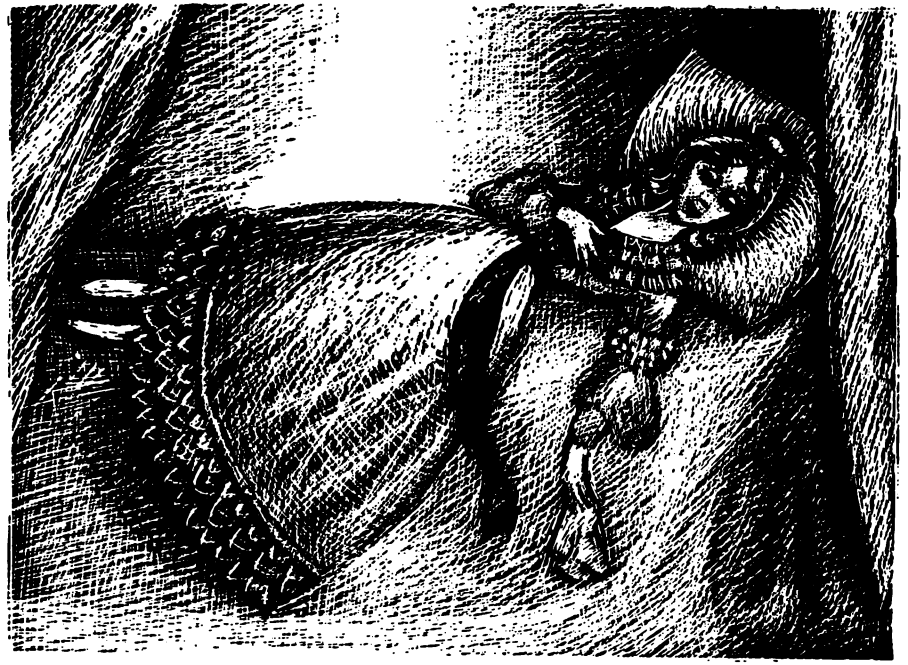

– حَقًّا، قالَتْ وهي تَشعُرُ بالخَيبَةِ، ما الذي عَلَيَّ ابتِداعُهُ إذًا كَيْ أُهينَ الآنسة؟ نَعَمْ، أَعلَمُ أنَّها مُتواطِئَةٌ مَعَ الحاكِمِ لَحَمْلي على التَّمَنّي ثانِيَةً، ولكِنْ عَبَثًا... أأنتِ على تلكَ الدَّرجةِ من السذاجةِ التي تجعلكِ تعتقدينَ أنكِ قادرةٌ على هذا يا آنسة ميلدفيدر؟ أنتِ علَى أيّ حالٍ تجرَحين مشاعِري في حالِ بَدا لكِ أنّني مِن تلكَ الشّاكِلَةِ! لا، وأريدُكِ أن تَعلَمي هذا يا آنستي، لا تظنّي أنَّكِ سَتَجِدينَ فيَّ شَخصًا ساذَجًا. وَفِّري ألعابَكِ الصَّغيرَةَ السَّخيفَةَ لِشَخصٍ آخَرَ! شَخصٍ أغبَى...

سكتَت برهةً وتَثاءبَتْ، ثُمَّ واصَلَتْ على المِنوالِ نَفسِهِ:

– أنا مَغرورَةٌ، لكنَّني لستُ غَبِيَّةً. أما الحاكِمُ فمَغرورٌ وغَبِيٌّ، لذا هوَ إنسانٌ

سعيدٌ، كما تَرَى الآنسة... وبالتالي في وُسعِهِ أن يَكونَ لَطيفًا أيضًا، وأنا لا يُمكِنُني ذلكَ، أنا لئيمةٌ... لئيمةٌ جِدًّا...

لَمْ تَقُلْ فلاكسا ميلدفَيدر أيَّ شيءٍ إطلاقًا وإنَّما أَصغَتْ بإمعانٍ. واضِحٌ أنَّ الحاكِمَ والحاكِمَةَ هنا في القَصْرِ يُحِبّانِ الثَّرثَرَةَ.

ها هيَ الحاكِمَةُ تَرفَعُ نَبرَةَ صوتِها:

– أنا لَئيمَةٌ، رَدَّدَتْ، أَلَمْ تَسمَعْني الآنسةُ وَأنا أَقُوْلُ ذلكَ؟ لِماذا لا تُخالِفُني الآنِسَةُ بالقَوْلِ؟

صَمَتَتْ فلاكسا كالحَجَرِ!

عِندَئذٍ رَفَعَتْ الحاكِمَةُ بَصَرَها لأوَّلِ مَرَّةٍ.

– أنا مُعتادَةٌ على أنْ يُخالِفَني الآخَرون عندَما أَتَّهِمُ نَفسيْ بِشَيءٍ، قالَتْ بِعَينَينِ مَفتوحَتَينِ على وُسعِهما.

– حَقًّا؟ قالت فلاكسا، وأنا مُعتادَةٌ على أنْ أوافِقَ مُحَدِّثي.

قعدَت الحاكِمَةُ في سريرِها ومَسَحَتْها بِنَظْرَةٍ منَ الأعلَى إلى الأسفَلِ، ومنَ الأسفلِ إلى الأعلَى. بَدَتْ ساخِطَةً كالأطفالِ إلا أنّها حاوَلَتْ إظهارَ اللامُبالاةِ والسَّطْوَةِ في آن.

عِلقَتْ نَظرَتُها عِندَ خِنصَرِ فلاكسا ميلدفيدر اليُسرى.

– ما هذا الخاتَمُ الذي لدَى الآنسة؟

– إنَّهُ خاتَمٌ فِضّيٌّ قَديمٌ ولا شيء غير ذلكَ! مكتبة ياسمين

– نَعَم، أرى هذا بالتَّأكيدِ، ولكِنَّهُ بِلا حَجَرٍ. أأضاعَتْهُ الآنسةُ؟

– نَعَم، لَقَدْ ضاعَ.

ارتَعَدَت الحاكِمَةُ.

– أفٍّ، مَنْظَرُهُ مُخيفٌ، قالَتْ. تَمامًا كما لو أنّه أَعمى! اخلَعيهِ فَورًا!

ولكِنَّ فلاكسا ميلدفَيدر هَزَّتْ رَأْسَها، وبَقيَ الخاتَمُ حَيثُ هو.

تَنَهَّدَت الحاكِمَةُ وَهَوَتْ إلى الخَلفِ على الوسائدِ.

وكَظِلٍّ تسلّلَ خادِمٌ فَجْأَةً داخلًا الغرفةَ ووضعَ صِينِيَّةً عليها قَدَحُ ماءٍ وبَعْض الحُبوبِ على الطّاوِلَةِ المُجاوِرَةِ للسَّريرِ. واختَفى ثانِيَةً.

بَعدَ ذلكَ مُباشرَةً تصاعدَ في الأرجاءِ ضَجيجٌ هائلٌ. كَأَنَّ إعصارًا دَهَمَ القَصْرَ، إذ اهتَزَّ كُلُّ شَيءٍ وارتَعَدَ.

غَطَّتْ الحاكِمَةُ وَجهَها بِيديها الاثنتينِ وَلبثَت ساكنةً برهةً، ثُمَّ تَناوَلَتْ زوجًا مِن سِداداتِ الأُذُنِ وَوَضعَتْهُما في أُذُنَيها، ثمّ وهي ترتجفُ وضعَت في فمِها مقدارَ كَفٍّ مِنَ الحُبوبِ وابتَلَعَتْها مَعَ الماءِ. نَظَرَتْ مُحَدِّقَةً إلى فلاكسا وقالَتْ بِنَبرَةٍ منزعجةٍ:

– عليكِ أن تَذهبي الآنَ يا آنسة ميلدفَيدر، فَقَدْ جَلَسْتِ مُدَّةً أطولَ ممّا يَنبغي. ولِماذا تبقَين هُنا؟ لا رَغبَةَ لَدَيَّ في الجُلوسِ والحَديثِ إلى آذانٍ صَمّاءٍ، كما إنَّني لا أريدُ الكلامَ عندَما لا أعرِفُ ما أقولُ، وكيفَ لي أنْ أعرِفَ وأنا لا أكادُ أسمعُ صَوتي؟ أَوْلى بِكِ أن تُدرِكي ذلك. اذهَبي الآنَ!

نَهَضَتْ فلاكسا ميلدفَيدر وغادرتِ الغُرفَةَ على عَجَلٍ.

١٦

اكتَشَفَت نانا أنَّ كلاس وكلارا يَهْرُبانِ عندما تنامُ.

حَدَثَ ذلكَ عندَما نَسيَتْ مَرَّةً أنْ تَأْخُذَ حُبوبَها فاستَيقَظَتْ بَعدَ رُبْعِ ساعَةٍ. وعندَئذٍ وَجَدَت السَّريرَينِ خاوِيَينِ والطِّفلَينِ على السّلالِمِ. فقامَت القيامَةُ طَبعًا، وظنَّ الجميعُ أنَّهُمْ عرفوا أخيراً سببَ تحطّمِ الزُّجاجِ بَينما نانا نائمةً. وهِيَ الأُخرى بدَت مقتنعةً بذلكَ.

طَلَبَتْ فَورًا مِنَ الحاكِمِ طَوْقًا كَبيراً وآخَرَينِ صَغيرَينِ، وأن يكونَ لكُلٍّ من الطَّوْقَينِ الصَّغيرَينِ كُلّابٌ واحِدٌ، وللكبيرِ كُلّابانِ. كما طَلَبَتْ سِلسِلَتَينِ طويلَتَينِ. مكتبة ياسمين

وهكذا، صار كلاس وكلارا يُقيّدانِ بالطَّوقَيْنِ الصَّغيرَينِ دائمًا، بَينما تُقيّدُ نانا الطوقَ الكبيرَ بذراعِها. وكُلَّما أرادت أن تنامَ ثَبَّتَتْ السِّلسِلَتَينِ في كُلّابِ طَوقِها مِن جِهَةٍ وفي طَوقِ كُلٍّ مِنْ كلاس وكلارا مِن جِهَةٍ أُخرى.

وبهذهِ الطريقةِ اضطرّ الطفلانِ إلى الاستلقاءِ في سَريرَيهِما بلا أدنَى حركةٍ على الإطلاقِ، إذْ أنَّ نانا ستشعرُ فورًا بأَقلِّ حَرَكَةٍ، فَتَهُبُّ مِنْ نَومِها الذي لم يكُن عميقًا على الرّغمِ من شَخيرِها الصاخبِ.

أمّا عندَما تَتَقَلَّبُ نانا في نَومِها، فكانَتْ تشدُّ معها سِلسِلَتَيْ الطِّفلَينِ، وأحيانًا تتقلّبُ بعنفٍ يُؤدي إلى جرِّ يَدَي الصَّغيرَينِ خارِجَ سَّريرَيْهِما، وأحيانًا

يُجَرُّ السَّريرَانِ بأكْمَلِهما.

رأت نانا بكلِّ ثقةٍ وفطنةٍ أنَّ تَحطيمَ الزُّجاجِ سيتوقّفُ بعدَ هذا الإجراءِ. ولكِنَّها كانتْ مُخطِئةً.

فَعَلى الرَّغْمِ مِن أنَّ الطِّفلَينِ تَمَدَّدا مَغلولَين على مَقربةٍ منها، ومِن المُستحيلِ أن يفلتَا مِنَ سَريرَيْهِما، تَحَطَّمَ الزُّجاجُ كلّما نامَتْ نانا تَقريبًا.

لَمْ يُفلِحْ أَحَدٌ في اكتشافِ كيفَ يحدثُ ذلِكَ.

وَقَدْ وجَدَتْ فلاكسا ميلدفَيدر نَفسَها في مواجَهَةِ هذا اللُّغزِ مُنذُ أوّلِ يومٍ لَها في القصرِ.

كانت قَد تَركَتْ غُرفَةَ الحاكِمَةِ لِتَوّها عندَما صَرَخَتْ مِمي في نَومِها. ليسَت فلاكسا طبعًا مِمَّن تَسهُلُ إخافَتَهُمْ، ولكِنَّ تِلكَ الصَّرخَةَ كانَتْ مَهولَةً، وتُقَطِّعُ القَلبَ، إلى درجةِ أن فلاكسا وقفَت عاجِزَةً عَنْ الحَرَكَةِ.

عندَما هَدَأَت نفسُها، مضَت مُسرِعَةً نحوَ الجهةِ التي تَأتي منها الصّرخةُ. ومِن تلكَ الجهةِ نفسِها تصاعدَ الضَّجيجُ الذي يَصُمُّ الأُذُنَ ويتردّدُ في جميعِ أرجاءِ القصرِ.

خَفَقَ قلبُ فلاكسا بِعُنْفٍ وغصَّ بشتّى أنواعِ الهواجسِ السَّيئةِ.

لَمْ تَرَ أحدًا طوالَ الوَقتِ، وكانت الغُرَفُ خاوِيَةً، ولكنَّ الزُّجاجَ المُحَطَّمَ تناثَرَ على الأثاثِ في كُلِّ مكانٍ. بَدا المشهدُ عَجيبًا.

على إحدى الطّاولاتِ تناثَرَتْ شَظايا مِزْهَرِيَّةٍ، فَوَقَعَتْ الأزهارُ وراحَ الماءُ يَقْطُرُ على الأرضِيَّةِ.

وفي مَكانٍ آخرَ رأت إناءً فارغًا مَشطورًا إلى نِصفَينِ. وعلى إحدَى الموائدِ

صينيَّةٌ احتَوَتْ قواريرَ نَبيذٍ مُهَشَّمةً. والنبيذُ يسيل بِلا صوتٍ على السَّجّادَةِ التي اصطَبَغَتْ باللَونِ الأحمَرِ شيئًا فشيئًا. ولا أحدَ هناكَ في أيّ مكانٍ.

حَثَّت الخُطى، بل أخذت تَعدُو مِن غرفةٍ إلى أُخرى. نهشها قلقٌ مُنهِكٌ، فذاك ليسَ أمرًا عاديًا بالنِّسبَةِ إليها، إلا أنّها شعرَت أنَّها لَن تلبثَ عمّا قريبٍ أن تكتشفَ سرًّا ما.

مَن حَطَّمَ الزُّجاجَ؟ مَن صَرَخَ؟

أينَ الطِّفلانِ؟

علَت وتيرةُ الضجيجِ فأَبْطَأَتْ خُطاها، أدرَكَتْ أنَّها اقتَرَبَتْ. عندَئذٍ أقبلَ كلوكة يحلّقُ نَحوَها بِجناحَينِ يَخفِقانِ بلا صوتٍ. ومن غير أن يَقولَ شيئًا حَطَّ على كَتِفِها فهَدأت نفسُها.

التقَت به أمامَ نافذَةٍ كبيرَةٍ تُطِلُّ على المَدينَةِ. كانَوا في الربيعِ، والسّاعَةُ تُقارِبُ الثّالِثَةَ بَعدَ الظُّهْرِ، وكانَ يَنبغي أن يطغَى ضوءُ النّهارِ على كلّ شيءٍ، إلا أنَّ مَطرًا رماديًّا أزَلِيًّا غَشِيَ النَّوافِذَ مُعتِّما الأجواءَ.

– أعَرَفْتَ شَيئًا يا كْلُوكة؟ سألَتْه فلاكسا.

هزّ الغُرابُ رأسَه، ووَجَّهَ بَصَرَهُ نَحوَ بابِ الغُرفَةِ المُجاوِرَةِ.

– أالطِّفلانِ هناكَ؟ أكُنْتَ في الغُرفَةِ؟

هزَّ رأسَه ثانيةً وبقيَ قابعًا على كَتِفِها، بَينَما مضَت فلاكسا بِبُطءٍ نَحوَ البَابِ المُوارِبِ. دَخَلَتْ وَوَقَفَتْ لَحظَةً أمامَ سِتارَتَينِ سميكتين داكِنَتَي الخُضرَةِ. ثُمَّ نحّتهُما جانبًا بِحَزْمٍ وَدَلَفَتْ إلى الغُرفَةِ.

سيطرَت علَى تلكَ الغرفةِ عتمةٌ خَضراءُ بسببِ الستائرِ المُسدلةِ. عندَما تأقلَمت عَيناها مع الظلامِ أبصرَت سَريرًا هائلًا بقوائِم عِنْدَ أحَدِ الجِدارَينِ القصيرَينِ، وعنَدَ كُلٍّ مِنَ الجِدارَينِ الطَّويلَينِ انتَصَبَ سَريرٌ لِأحَدِ الطِّفلَينِ.

وفي الغرفةِ تمتدّ سِلسِلتانِ، ابتداءً منَ السَّريرِ ذي القوائم وانتِهاءً بِسَريرَي الطِّفلَينِ. لمعتا في الضَّوءِ الخافِتِ وتَمَوَّجَتا كُلَّما تَنَفَّسَتْ النّائمَةُ في السَّريرِ ذي القوائم.

مُتَوَجّسَةً إنَّما بلا أَيِّ تَرَدُّدٍ تَقَدَّمَتْ فلاكسا مِنَ السَّريرِ الكبيرِ. وقعُ خطواتِها غَرِقَ في عُبابِ عاصِفَةِ تلكَ النّائمَةِ.

كانَتْ فلاكسا شاحِبَةً، حَتّى عيناها بَدَتا كما لو أنّهما فَقَدَتا لَونَهُما العَميق، وراحَتا على نحوٍ غريبٍ تبُصّان سَاهِمتين بلونٍ فاتحٍ. بقي الغرابُ الأسحمُ قابعًا بهدوءٍ على كتفِها.

ومِن عارضةِ السَّريرِ تَدَلّى قَفَصٌ فيهِ طيرٌ نائمٌ. نَظَرَ كلوكَة بإمعانٍ إلى الطَّيرِ، بينَما بقيَت عَيْنا فلاكْسا مسمّرتينِ على تلكَ النَّائمَةِ في السَّريرِ. ظَنَّتْ لوهلةٍ أنَّ عَينَي النائمةِ لَمَعَتا في العَتَمَةِ، ثم تَبَيَّنَتْ لاحِقًا أنَّ ذلكَ ليسَ سِوى نظارتِها.

في اللَّحظَةِ ذاتِها اكتَشفَتْ مَنْ التي تستَلقِي هناكَ، فَأَطْبَقَتْ عَينَيها على شعورٍ بألَمٍ ولا أعظَمَ.

مَسَحَتْ جَبْهَتَها كَمَنْ يُريدُ أنْ يُفْنِيَ بَصَرَهُ، ثم عادَت ونظرَت وهي تنحَني فَوقَ النّائمَةِ وهَمَسَتْ بِحُزْنٍ:

– تَوَقَّعْتُ هذا. ليسَ من المُمكنِ أن يكونَ النائمُ هنا شَخصًا آخرَ سِوى نانا. ما المصيبةُ التي جَررتِ خَلفَكِ أيَّتها المسكينَةُ الضّالَّةُ، يا بنتَ الشُّؤمِ يا أُختي؟

كانتْ لَحظَةً شاقَّةً على فلاكسا التي لَمْ تَرَ أُختَها منذُ زَمَنٍ بَعيدٍ. وتَمَنَّتْ بالتَّأكيدِ لو أنَّ لقاءَهما جاءَ مُختَلِفًا. وهذا ما سبّبَ تلك المَسحَةَ منَ الرِّقَّةِ المَحزونَةِ في صَوتِها.

تَحَرَّكَتْ نانا في نَومِها بطريقةٍ قلقةٍ، خَشْخَشَت السّلاسِلُ، وَحَلَّقَ كلوكة وهوَ يصيحُ صَيحَةَ تَنبيهٍ واختَفى بَينَ السَّتائرِ.

رَمَقَتْ فلاكسا نانا بِنَظْرَةٍ أُخرى مِلؤها الشَّفَقَةُ والكَرْبُ، قَبلَ أنْ تَنسَلَّ بِخِفَّةٍ خارِجِ الغُرفَةِ.

في اللَّحظَةِ التّالِيَةِ أفاقَتْ نانا ومِمي، فَعادَ الهُدوءُ إلى القَصْرِ. هُدوءٌ بَدا لِفلاكسا كهدوءِ الأشباحِ بينما حَثَّتْ خُطاها عائدَةً مِنْ الطَّريقِ نفسِها التي سَلَكَتْها قبلَ حينٍ، وكلوكة يسبقُها مُحَلِّقًا.

لَمّا مَرَّتْ بإحدى القاعاتِ لمحت حُوذِيًّا مُسنًّا يقِفُ وَقفَةً مُتَحَجِّرَةً عَجيبَةً وفي يَدِهِ إناءٌ مُحَطَّمٌ. ولَمْ يَرَها.

وفي غُرفَةٍ أُخرى لمحتهُ من جديدٍ وهو يقفُ الوقفَةَ نَفسَها وفي يَدِهِ شَظايا مَزْهَرِيَّةٍ، ولَمْ يَرَ فلاكسا أيضًا.

ومَرَّةً ثالِثَةً لمحتهُ وفي يَدِهِ هذهِ المَرَّةَ قارورَةُ النَّبيذِ، سالَ النَّبيذُ على يَدَيْهِ ولم يَرفَعَ بَصَرَهُ.

تَساءَلَتْ كيفَ يُمكِنُهُ أن يتَنَقَّلَ بهذهِ السُّرْعَةِ وأنْ يَبدوَ مَعَ ذلكَ كَأَنَّهُ يَقِفُ دائمًا في البُقعَةِ ذاتِها. ثم عادَت ونسيَت أمرَه بَعْدَ حينٍ.

كانَ لَدَيها ما يَشغَلُ فِكرَها.

في غُرفَةِ البُرْجِ هناكَ في الأعلَى وقعَت أسيرَةَ التفكيرِ. كانَتْ لِلبُرْجِ نوافِذُ في جميعِ الاتِّجاهاتِ، إلا أنَّ المَطَرَ غَشِيَها جميعًا بلا انقِطاعٍ، ولَمْ يَتَوَقَّفْ إلّا قُبَيلَ حلولِ الظلامِ، تلاشَت الغُيومُ لِيَأتيَ اللّيلُ بِنُجومِهِ. فمَضت فلاكسا إلى المِسبارِ ووَجَّهَتْهُ نَحوَ السَّماءِ.

لَمْ يُثِرْ عَجَبَها ما رأتهُ في الأعلى من أشكالٍ ومساراتٍ تشبهُ تلكَ التي رَأَتْها في نَسيجِها، على أنَّها بَدَتْ هُنا لا نِهائِيَّةَ باتّساعِها وجمالِها.

تحدّثَ بَعضُ الحُكَماءِ عن وجودِ علاقَةٍ من نوعٍ ما بَينَ النّاسِ والنُّجومِ. وهذا لم تعتقِده فلاكسا، بل أضحَكَتْها الفِكرَةُ. ورأت أنّها فِكرَةٌ رَعْناء. فهي

تستطيعُ أن تميّزَ جيدًا وجوهَ التشابهِ، إنَّما ليسَ العلاقَةَ.

لا، كُلُّ شيءٍ في مكانِهِ. هنا في الأسفلِ مكانُ النّاسِ.

هناكَ في الأعلى يقتصرُ الأمرُ على النُّجومِ فقَط. وثمّة عَزاءٌ عظيمٌ للمرءِ أن يدركَ أنَه أنّى سارَ في الأرضِ فالنجومُ هي نَفسها.

وهذا ما عناهُ كلوكة أيضًا.

– كلٌّ يَعِيشُ حياتَهُ وَحدَهُ، قالَ، على قَدْرِ تَعَلُّقِ الأمرِ بالنُّجومِ ...

١٧

مَضى يَومان.

عادَ اللَّونُ إلى وَجنَتَيْ الحاكِمَةِ ونَهَضَتْ. أرسَلَتْ باستِمرارٍ في طَلَبِ فلاكسا ميلدفَيدر وتَشاجَرَتْ مَعَها دائمًا. كانَ الأمرُ كَأَنَّ ذلكَ هُوَ ما مَنَحَها العافِيَةَ.

ها هيَ واقِفَةٌ عِندَ النّافِذَةِ المُشْرَعَةِ في غُرفَتِها، ونَسيمٌ عَليلٌ يُداعِبُ شَعرَها الجَميلَ. والشَّمسُ مُشرِقَةٌ.

– بماذا تُناديني الآنسَةُ؟ على الآنسَةِ أنْ تُنادِيَني بالحاكِمَةِ، قالَتْ بنبرةٍ مُستفزةٍ.

وَقَفَتْ فلاكسا ميلدفيدر إلى جانبِها، بكامِلِ حُلَّتِها، حيثُ كانَتْ تَتَهَيَّأُ للخُروجِ عندَما أرْسَلَتْ الحاكِمَةُ في طَلَبِها. أجابَتْ هذهِ المَرَّةَ:

– أوهِ لا، إنَّ مَنْ لا تَستَطِيعُ التَّحَكُّمَ بِنَفسِها ليسَتْ حاكِمَةً. قالَتْ ذلكَ بِهُدوءٍ وبلا أدنى انفِعالٍ بالطَّبْعِ.

كانَ نَهارًا رائقًا، أوَّلَ يومٍ جميلٍ بعدَ عَديدٍ مِنَ الأيّامِ الرَّماديَّةِ المُعتِمَةِ. إلى هُنا في أقاصي الشَّمالِ، إلى مَدينة الأماني كانَ الصَّيفُ قَد وَصلَ فغمَرت روعتهُ القَصْرَ البائسَ.

رَفَعَتْ فلاكسا وَجْهَها نَحوَ السَّماءِ، وابتَسَمَتْ وَقَدْ أَخَذَتْها الأفكارُ بَعيدًا.

– لا تتمتعُ الآنسةُ بأيِّ أسلوبٍ في الحوار، سَمِعَت الحاكِمَةَ تقولُ. عندَما

أريدُ منَ الآنِسَةِ أنْ تُخالِفَني، فإنَّها تُوافِقُني، وعندَما أتَوَقَّعُ الموافَقَةَ فإنَّ الآنِسَةَ تُخالِفُني.

– أنا أقولُ ما أرى، ولا شيءَ آخر، قالَتْ فلاكسا ميلدفيدر بِمُنتَهى الحِلْمِ وفكرُها مَشغولٌ. شَعَرَتْ بالصَّفاءِ والاتِّزانِ أمامَ مُهَمَّتِها، شَعَرَتْ أنَّ بإمكانِها اليومَ أنْ تَتَسَوَّقَ. فهذا اليومُ مناسِبٌ للتَنَقُّلِ.

– لا يجدرُ بالمرءِ أنْ يَتَكَلَّمَ كما يَحلو لَهُ. على المَرءِ أنْ يَقولَ ما يَظُنُّهُ يروق للآخرينَ، ألا تَعلَمُ الآنِسَةُ ذلكَ؟

– لا.

– إذَنْ فَعَلَيَّ أنْ أُؤَدِّبَ الآنِسَةَ!

– لا أَظُنُّ هذا مُجدِيًا ...

– في هذهِ الحالِ لَنْ تُجْدِيَ مُحاوَلَةُ حَمْلِي على تَمَنّي أيَّ شيءٍ كذلكَ، قالَت الحاكِمَةُ بِتَحَدٍّ.

أجابَت فلاكسا بصوتٍ بَدا كأنّها تستجلبُه مِنْ مكانٍ بَعيدٍ، فقد كانت شاردةَ الذّهنِ إلى هذا الحَدِّ.

– لا، ولا أظُنُّ أنَّ هذا الأمرَ يُهِمُّني. هناكَ ما هوَ أَهَمُّ في الحياةِ...

بَدَرَتْ عَن الحاكِمَةِ حَرَكَةٌ دَلَّتْ على انفعالِها فنفثَت كلماتِها نفثًا:

– كَيفَ تَستَطيعُ الآنِسَةُ أنْ تَقولَ شيئًا كَهذا! مَاذا؟ ما هو الشَّيءُ الأَهَمُّ؟

بقيَت فلاكسا في مكانِها تَنظُرُ إلى السَّماء، وَلَمْ تُجِبْ فَورًا، بلغَ أنفَها عِطْرٌ سَديمِيُّ الخِفَّةِ مِنْ تَفَتُّحِ الصَّيفِ، مِنَ الياسَمينِ ...

– أوه، قالَتْ بَعدَئذٍ، هناكَ أشيَاء كثيرةٌ أَهَمُّ منْ أماني البَشَرِ. إذ ما نَفْعُ

تلكَ الأمَاني؟

أخلَدت الحاكمةُ إلى الصّمتِ. بَدَتْ مذهولةً إنَّما غَير مُستاءةٍ. لم يُسعفها أيّ ردٍّ. عَجزَت عن فَهْمَ هذهِ العجوزِ البَشِعَةِ الهِندام. بَل عجزَت أيضًا عن فهمِ نفسِها. فَقَدْ شَعَرَتْ بالضَّعفِ والغَضَبِ مَعًا، بالحُزْنِ والابتِهاجِ مَعًا.

كانَت الأمورُ أسْهَلَ في الماضي. على امتدادِ عديدٍ من السنينِ لَمْ تَشعُرْ سوى بالبُغْضِ، هذه المشاعرُ الجَديدَةُ ليست عاديةً، لَمْ تَعرِفْ تَمامًا كيفَ تَتَصَرَّفُ حيالَها. الخَطَأُ خَطَأُ العَجوزِ. أرادَتْ أنْ تَجرَحَها، أن تُهينَها، وأنْ تَسخَرَ مِنها. ولكنَّها لَمْ تَقْدِرْ. كانَ وقعُ كُلّ ما تقولهُ تافِهًا.

ها هي العجوزُ تقِفُ هناكَ تقولُ إنَّ أمانِيها لَيسَتْ مُهِمَّةً. وهذه وقاحةٌ مِنها! فلماذا إذًا لَمْ يَغلِبْها الشَّرُ لَحظَتَها؟

كيفَ شعرَت بتلكَ الدَّناءَةِ وكأنَّها مَدعاةٌ لِلرّاحَةِ؟ ها هي تَقِفُ هنا بلا إجابَةٍ.

تتبّعَت نَظْرَةَ فلاكسا وقالَتْ بلا مُبالاةٍ:

– تَقِفُ الآنِسَةُ وتتطلّعُ بفمٍ فاغرٍ نَحوَ السَّماء؟ ما الذي تَنظُرُ الآنِسَةُ إلَيهِ؟

– إلى الغُيومِ. فَهيَ تَبدو كَخِرافٍ صَغيرَةٍ تَرعى في المَرْجِ السَّماوِيّ هناكَ في الأعلَى بينَ البُروجِ.

بَدَت الحاكِمَةُ فَجْأةً كَصَبيَّةٍ صغيرَةٍ، لَمْ تَقُلْ شيئًا، تصاعَدت من خارجِ النّافذةِ أغاريدُ الطُيورِ، فأمالَتْ رَأسَها بِجِدّيَّةٍ تتأمّلُ الغُيومَ.

وعِندما أجابَت بعدَ برهةٍ كانَ صوتُها مختلفًا تَمامًا:

– أتَعْرِفُ الآنِسَةُ أنني كُنتُ أرعَى الخِرافَ في طُفولَتي، درجتُ على فعلِ

ذلكَ في مَرْجٍ صغيرٍ شحيحٍ، ومع أنّهُ ليسَ مَرْجًا سَماوِيًّا تَمامًا، كانَ جميلًا مَعَ ذلكَ. حدثَ هذا منذُ زَمَنٍ بَعيدٍ، بَعيدٍ جِدًّا...

حطّت الريحُ على شعرِها وطَوَّحَتْ بِهِ على عَينَيها، فَأَزاحَتْهُ جانبًا وبالنَّبرةِ الجادّةِ نفسِها تابَعت حديثَها الذي تقاطعَ مَعَ تَغريدِ الطُّيورِ:

– في ذلكَ الزَّمانِ تَمَنَّيتُ دائمًا أن أُصبِحَ غَنِيَّةً وأنالَ كُلَّ ما أُريدُ. لَمْ أَظُنّ قطّ أنَّ أُمنِيَتي ستَتَحَقَّقُ. تَحَقَّقَتْ نعم، وحَصَلتُ على كُلِّ شيءٍ وأكثرَ. ولهذا السَّبَبِ تَوَقَّفتُ عَن التَّمَنّي كما تَرى الآنِسَةُ... وليسَ ذلكَ لِمُجَرَّدِ انتهاجِ اللُؤمِ.

عِندَئذٍ نَظَرَتْ فلاكسا إلى الحاكِمَةِ، التَقَتْ عيونُهما لِلمَرَّةِ الأولى، فأدركَتا أنَّهُما كانَتا في الصميمِ صَديقَتَينِ. سُرّت فلاكسا بَينَما بُوغِتَت الحاكِمَةُ وفزِعَت. وفي خضمّ حَيرَتِها حاوَلَتْ التظاهُرَ بالسخريةِ حين قالَت فلاكسا ميلدفَيدر:

– ينالُ المَرْءُ غالبًا ما يَتَمنّاهُ. هو فَقَطْ لا يَعلَمُ كيفَ ومَتى. وهذا ما يَجعَلُ الأماني غَدّارَةً. على المَرءِ أن يَتَمَنّى ما يَستَطيعُ استِقبالَهُ في أيِّ وَقْتٍ، منَ المُهِمّ أنْ تُفَكّري في هَذا...

كانَت الحاكِمَةُ قَدْ ابتعدَت عن النافذةِ لِتَسيرَ بنَفادِ صَبْرٍ جيئَةً وذهابًا.

– في هذهِ الحالِ أُفَضِّلُ ألاّ أتَمَنّى إطلاقًا، أجابت بانفِعالٍ. لماذا لا يستَطيعُ أَحَدٌ أن يَفهَمَ أنَّ المرءَ قد يرغبُ في الاحتِفاظِ بِأُمْنِيَتِهِ كما هيَ؟ هُنا في القَصْرِ ليسَ لي أنْ أحتَفِظَ بأُمْنيَةٍ واحِدَةٍ لِنَفسي، فَهيَ تُحَقَّقُ لي حتّى قبلَ أنْ أدركَ كُنهَها، إنَّهُ شيءٌ رَهيبٌ...

عادَتْ إلى النّافِذَةِ وأمسَكَتْ بِذِراعِ فلاكسا. كانَتْ عَيناها تَقْدَحانِ شررًا.

– يَدْفَعُني ذلكَ إلى التصرّفِ بلؤمٍ. أريدُ ولا بُدَّ لي مِنْ أنْ أَكونَ لَئيمَةً، خُصوصًا مَعَ الحاكِمِ، فَهوَ مَنْ يَسرِقُها، لأنَّهُ لا يملكُ أمانيَ تَخُصُّهُ، ولا يَعلَمُ أنَّهُ يَفتَقِدُ ذلك.

أَفلَتَتْ ذِراعَ فلاكسا وتركَت عَينيها تَجولانِ هُنا وهناكَ كَمَن ينشدُ العَونِ.

– إنَّني أُحِبُّ الحاكِمَ، يا آنِسَةُ، ولهذا سأبقى لئيمَةً إلى أنْ يَفْهَمَ. نَعَمْ، سأَفعَلُ!

ينسلُّ أَحَدُ الخَدَمِ كَظِلٍّ إلى الغُرفَةِ تارِكًا صّينِيَّةَ الحبوبِ وقدحِ الماءِ وسِدادات الأُذُنِ، ثمّ يعودُ ويَنسَلُّ خارِجًا ثانِيَةً.

تَبِعَتْهُ الحاكِمَةُ بِعَينَيها، بَدَتْ خائفة وقالَت وهي تتنهّدُ:

– الآنَ سَتنامُ نانا. رافِقيني في جَولَةٍ بالعَرَبَةِ يا آنِسَةُ، فالطَّقسُ رائعُ الجَمالِ في الخارِجِ. سأَسْأَلُ الحاكِمَ إذا كان يرغبُ في مُرافقتِنا.

دَقَّتْ الجرسَ وطَلَبَتْ تَهْيِئَةَ عَرَبَتِها. كانت نظرتُها مشحونةً بذلكَ التعبيرِ المَحمومِ المُنهمكِ في البحثِ عن شيءٍ ما، كما هِيَ حالُها دَومًا عِندَما يَحينُ موعِدُ نَومِ نانا.

– افعلوا هذا بسرعةٍ! نادَتْ مُخاطِبَةً الخادِمَ ثُمَّ التَفَتَتْ إلى فلاكسا. لا أُطيقُ نَومَ نانا، قالَتْ، فَهوَ يصيبُني بتعاسةٍ جارفةٍ.

عنْدَئذٍ استَغَلَّتْ فلاكسا المَوقِفَ وسألَتْ بِهُدوءٍ:

– لِماذا لا تَدَعونَ نانا تَنتَقِلُ؟

بَدَت الحاكِمَةُ حائرَةً ومُتَوَتِّرَةً بِسَببِ شُعورِها بالذَّنْبِ. إنَّ نانا تَنتَمي إلى القَصْرِ، أوضَحَتْ، ويجبُ أن يحظَى الطِّفلانِ بمربيةٍ.

– فَلْيَعُد الطِّفلان إلى أَبَوَيْهِما إذًا! قالَت فلاكسا مُشَدِّدَةً على كُلِّ كَلِمَةٍ نطقَتها، وبنَظرَةٍ تَخترِقُ الأحشاءَ.

– يا لهُراءِ الآنِسَةِ، قالَت الحاكِمَةُ بِنَفادِ صَبْرٍ، كانَ الأمرُ بِدْعَةً مِنَ الحاكِمِ بالفِعْلِ، ولكِنَّ الطِّفلَينِ ينتَميانِ إلى القَصْرِ الآنَ...

– حَقًّا؟ قالَت فلاكسا، هكَذا هُوَ الأَمرُ إذًا! وَهَلْ أنتَمي أنا أيضًا إلى القَصْرِ.

– من المؤكّدِ أنَّ الآنِسَةَ مِثلُهُم! هَيّا بِنا نَذْهَبُ!

ولكِنَّ فلاكسا ميلدفَيدر بقيَت واقفةً حيث هي. وبالتالي لازَمَتها الحاكِمَةُ

رغمًا عَنها وَقَدْ سَمَّرَتْها العَينانِ الزَّرْقاوانِ.

– عِندَما يَحينُ الوَقتُ المُناسِبُ سَأُبَيِّنُ مَن يَنتَمي إلى هَذا القَصرِ ومَن لا ينتَمي إلَيهِ، قالَتْ فلاكسا مُحَمِّلَةً عبارَتَها أكثَرَ مِنْ معنًى.

وفي اللحظَةِ ذاتِها انفَجَرَتْ قَيلُولَةُ نانا، فَهَرَبَتْ الحاكِمَةُ مِنَ القَصْرِ الكَبيرِ وفلاكسا في أعقابِها.

كانت العربةُ تنتظرُ في الخارِجِ وفيها الحاكِمُ.

فَمضوا مُبتَعِدِينَ على عَجَلٍ.

١٨

كانَ الحاكِمُ قَدْ قَرَّرَ أنْ يتصرّفَ بتهذيبٍ مَعَ فلاكسا. فالعَجوزُ أثبتت أنّها أهلٌ لِذلكَ، خصوصًا أنَّ الحاكِمَةَ بدت أكثَرَ عافِيَةً الآنَ. وهَذا هو الشيءُ الأهمُّ.

ورَجاحةُ عقلِهِ جعلتهُ يمتنعُ عن إظهارِ البُغضِ الذي يُضمرهُ.

مَضَوا على مَهَلٍ عَبرَ الشَّوارِعِ، واستَعرَضَ الحاكمُ بِفَخْرٍ مَدينَتَهُ. أشارَ إلى الموضعِ الذي ستقعُ فيهِ الساحةُ، وإلى البقعةِ التي ستقومُ عليها الكنيسةُ، وأين سيُشيّدُ دارَ القَضاءِ، والمَسرَحَ، والمَسبَحَ، والمَدرَسَةَ.

وَصَفَ الأَبْنِيَةَ بأَدَقِّ تَفاصيلِها، نَسيَ نَفسَهُ بَينَ الدّعاماتِ والأعمِدَةِ، وبَينَ الأقْبِيَةِ والمُنعَطَفاتِ. دَخَلَ بِهما إلى مُتَنَزَّهاتِ المَدينَةِ، ويا لأنواعِ الأشجارِ والزُّهورِ التي ستزدهرُ هناكَ. مكتبة ياسمين

كانَتْ سَتَغْدُو أَجمَلَ وأفضَلَ مَدينَةٍ في الدُّنيا، أوضَحَ، فَأَدْرَكَتْ فلاكسا ميلدفَيدر أنَّ ذلكَ تَحديدًا هو سَبَبُ عَدَمِ اكتمالِها.

في تلكَ الأثناءِ جلسَت الحاكِمَةُ وظهرُها يَتكئ على وَسائدِ العَرَبَةِ وَلَمْ تَقُلْ شَيئًا. أَبقَتْ عَينَيها مُطبَقَتَينِ حَتّى عَبَروا بَوّابَةَ المَدينَةِ خارِجينَ مِنْها.

لَمْ تنظُر إلى ما حولَها إلا بعدَ أن بلَغوا الرّيفَ.

تَجَلّى مِن حَولِهِمُ الصَّيفُ. فجأةً رأت أنَّه شيءٌ أكيدٌ وغامرٌ في الوَقتِ

نَفسِه. كانَت دائمًا تنسَى هذا السِّحر في الشتاءِ الطويلِ.

رأَتْ قطيعَ الغيومِ يرعَى في المَرْجِ السَّماوي، كما قالَتْ فلاكسا. سَعَتْ نظرةُ عينيها إلى لقاءِ عَينَي فلاكسا وشَعَرَتْ ثانِيَةً أَنَّهُما صَديقتانِ، ولكِنَّ ذلكَ لَمْ يَعُدْ يُخيفُها. لَمْ تَفْهَمْ تَمامًا كيفَ حدثَ ما حدثَ، كيفَ أمكَنَ أن تُصبِحا صديقَتَينِ، إلا أنّها كَفّت عن إرهاقِ نفسِها بالتفكيرِ.

جلسَت صامتةً وغافلةً عن كلِّ ما حولَها لِفَتْرةٍ طويلَةٍ. عبّت النسيمَ العليلَ، ولَمْ تسمع سوى أهازيجِ الطيورِ.

نَسِيَتْ مَدينة الأماني والقَصْرَ وكُلَّ ما كانَ. تَذَكَّرَتْ حياتَها وهي طفلةٌ فقيرةٌ حافيةُ القَدمين تَعْدو على العُشبِ باحِثَةً عَن الزُّهورِ. حاوَلَتْ أن تسترجعَ في ذهنِها أنواعَ الأزهارِ التي اعتادَت أن تلتقِط، وأيَّها أَحَبَّتْ أَكثَرَ مِن غَيرِه، وفَجْأَةً ابتَسَمَتْ وقالَتْ بِصَوتٍ حالِمٍ قَليلًا تُخاطِبُ الرِّيحَ:

– أَتَمَنّى لو أَحصل على باقَةٍ مِن النِّسْرِيْنِ، لَمْ تَتَفَتَّحْ بَراعِمُهُ بَعد، فَعِندَما كُنتُ طِفلَةً درجتُ دَومًا على قطفِه قُبَيْلَ تَفَتُّحِه...

الحاكِمُ الذي كانَ غارِقًا في أفكارِه انتَفَضَ، ونَظَرَ بِسُرْعَةٍ إلى فلاكسا ميلدْفَيدر، كَأَنَّها ساعَدَتْ على القِيامِ بِمُعْجِزَةٍ، ثُمَّ مالَ إلى الأمامِ نَحوَ الحاكِمَةِ وقالَ باحتِفاءٍ:

– عَزيزَتي... لَقَدْ أَفصَحْتِ عَنْ أُمنِيَةٍ.

حملقتِ الحاكمةُ مذعورةً، ثم أغمضَت عَينيْها ببطءٍ. ارتعشَت شَفتاها باستسلامٍ ولم تقُل شيئًا.

لكنَّ الحاكِمَ أردفَ وهوَ يَبتَسِمُ ابتسامَةَ الظّافِرِ:

– حالَما نَصِلُ إلى شُجَيرةِ نسرين، سأُحَقّقُ لَكِ أُمنِيَتَكِ، يا عَزيزتي.

رانَ الصَّمتُ على العربةِ. ولَمْ يُسمَعْ في الأرجاء سوى تَغريدِ الطُّيورِ. خبَّ الحِصانانِ عَبرَ الطَّبيعَةِ التي ازدادَتْ جَمالًا على جَمالٍ. تَبعوا نُهَيْرًا مُتَعَرِّجًا يُحاذي مروجًا تموجُ بالبراعمِ، وحِفافَ سَواقٍ مُزْهِرةٍ. تَمايَلَت الزُّهورُ وتأرجَحت في كلّ مكانٍ، إلا أنّهم لم يُبصروا شُجَيرةَ نسرينٍ واحدةً.

شُحِنت العربةُ بجوٍّ من التوتّر الحادّ بين رُكّابِها الثلاثةِ. تَطَلَّعَ الحاكِمُ مُبتَسِمًا بِقَلَقٍ حَولَهُ، وقبعت الحاكِمَةُ بِعَينَينِ مُغمَضَتَينِ دَومًا، ووَجْهُها خالٍ مِن التَعبيرِ. بَينَما جَلَسَتْ فلاكسا ميلدفَيدر مُستَقيمَةَ الظَّهرِ مُحَدِّقَةً بعيدًا بِعَينَي الفيرونيكا.

لَمْ يَجْرُؤ أَحَدٌ على قَولِ شَيءٍ.

شَعروا كَما لو أنّهم في حُلُمٍ، يفصلُهم عن الواقعِ وَقْعُ حَوافِرِ الحِصانَينِ، وأغاريدُ الطيورِ، وشَذى الأزهارِ الخَفيفِ.

عِندَما بَلَغوا طرفَ الغابَةِ حَيثُ نَمَتْ شُجَيراتُ النّسرينِ تَوَقَّفَت العَرَبَةُ، وَتَرَجَّلَ الحاكِمُ منْها ليقطعَ المَرْجَ نَحوَ الغابَةِ.

لَمْ تَتْبَعْهُ الحاكِمَةُ بِبَصَرِها، بقيت جالسةً كالسّابِقِ، وكذلكَ فلاكسا، ولَم تتَبادلا الحديثَ في غيابِه، مَنَعَهُما شيءٌ ما مِنْ ذلك.

مَضَتْ فَترَةٌ طَويلةٌ قبلَ أن يعودَ الحاكِمُ خالِيَ الوِفاضِ، يتقدّمُ متمهّلًا بِرأسٍ مُطَأْطِئٍ.

أخيرًا رَفَعَت الحاكِمَةُ بَصَرَها. كانَ وَجْهُها متشنّجًا وصارمًا في جدّيتِه.

– أينَ الباقَةُ؟ سألَتْ.

– الزُّهورُ مُتَفَتّحَةٌ جَميعًا، قالَ بصوتٍ خائبٍ، لَمْ أعثر ولا على بُرعمٍ واحدٍ.

– أَلَنْ أَنالَ باقَةَ أزهاري؟ سألَتْ بصوتٍ اعتراهُ الذّهولُ.

– لا، أجابَ الحاكِمُ بِأَسىً عظيمٍ.

– إطلاقًا؟

بَدا منهارًا تمامًا. وَعَدَ بإرسالِ الخَدَمِ والحَشَمِ بَحثًا عَنْ بَراعِمِ النِّسرينِ، هَذا إذا استطاعَت أن تصبرَ. لكِنَّ الحاكِمَةَ رَدَّتْ قائلَةً:

– لا، أريدُها الآنَ! مِنكَ!

عندَئذٍ طَلَبَ مِنها أن تَتَمَنّى باقَةً منَ الوُرودِ المُتَفَتِّحَةِ بَدَلًا مِنْها، فهزّت رأسهَا بحزمٍ.

– ولِماذا أتَمَنّى ذلك؟ قالَتْ. هذه يمكنُ أن أحصلَ عليها بسهولةٍ.

فلبثَ واقفًا هناكَ في الطريقِ مُحَطَّمًا. وإذا بِها تفعلُ ما لَمْ يَكُنْ مُتَوَقَّعًا. مَدَّتْ إلَيْهِ يَدَيها وابتَسَمَتْ.

– شُكرًا يا عَزيزي، قالَتْ بِوَداعَةٍ، شُكْرًا لأَنَّكَ تَركتَني أخيرًا أَحتَفِظُ بِأُمنيَتي.

نَظَرَ عاجِزًا إلَيها، ومع ذلكَ غمرتهُ السعادةُ لأَنَّهُ سَمِعَها تَقولُ كَلِمَةَ «شُكرًا» التي يَهوَاها، فابتَسَمَتْ ثانِيَةً لَهُ وَقالَتْ:

– ها قَدْ مَنَحتَني ما لا يستَطيعُ أَحَدٌ سَلبَهُ مِنّي. ولَو حدثَ ومَنَحتَني بَراعِمَ النِّسرينِ كما تَمَنَّيتُ، لتَفتّحَت قَبلَ حُلولِ اللّيلِ، ولسقطت أوراقُها غَدًا. أمّا الآنَ فستَظَلُّ تلكَ البراعمُ صغيرةً وَوَرْدِيَّةً دائمًا، لا تَتَفَتَّحُ ولا تَسْقُطُ عنها أوراقُها، تَمامًا كما تَمَنَّيتُها. شُكرًا لأَنَّكَ جَعَلتَني أَحتَفِظُ بِها!

صعدَ الحاكِمُ إلى العَرَبَةِ ونَظَرَ وهو لا يصدّق أذنيهِ إلى فلاكسا ميلدفَيدر، فابتَسَمَتْ بِدَوْرِها. تملّكته الحيرةُ. بدا له الحالُ كما لو أنّه أَبلى بلاءً حَسَنًا من

غير أن يَدْري.

تِلكَ الفِكرَةُ البَلهاءُ، أنَّ في وُسعهِ رُبَّما الإتيانَ بأفعالٍ حَسَنَةٍ في هذهِ الحياةِ، خَطَرَتْ لَهُ لِلَحظَةٍ، ولكِنَّهُ صَرَفَها. الأمرُ العَجيبُ حَقًّا أنَّها لَمْ تُثِر اهتِمامَهُ. حاليًّا لا إغراءَ مطلقًا هناكَ في تلكَ الفكرةِ. لَمْ يُصْغِ إلا لِصَوتِ الحاكِمَةِ.

– أَتفهمُ الآنَ؟ سَأَلَتْهُ بِصَوتٍ خَفِيضٍ.

فَسَمِعَ نَفسَهُ يُجيبُ:

– لا، ليسَ بَعْدُ. لكِنَّني أَظُنُّ أنَّني أريدُ أنْ أَفهَمَ.

١٩

لَمْ تَعلَمْ نانا أنّ فلاكسا ميلدفَيدر في القَصْرِ، وكذلكَ لَم يعلَم بأمرِها كلاس وكلارا، وما كانا عُمومًا لِيَتَذَكَّراها.

لَمْ تَنْوِ فلاكسا أن تُظهرَ نفسها قَبْلَ أنْ يَبْدَأَ الصِّراعُ بَينَها وَبينَ نانا. لذلك، عمدَت إلى إرسالِ كلُوكَة ليستطلعَ ما يَجري بَينَ نانا والطِّفلَين.

كانَ كلوكَة يحلّق عاليًا تجاه السَّقفِ بهدوءٍ، شبيهًا بأَكثرِ الظِّلالِ سكونًا، ولَمْ يلاحظهُ أَحَدٌ سوى مِمي البَكماء كَجدارٍ لا يَنطِقُ. وحَتّى لو استطاعَت مِمي أن تنطقَ لَما قالَتْ شَيئًا لِنانا، فَقَدْ تَبادَلَتْ نَظَراتِ تَفاهُمٍ سِرِّيٍّ مَعَ كلُوكة، وَلَمْ تمانع قطّ أن ترَى طيراً آخرَ في القَصرِ.

بهذِهِ الطَّريقَةِ اطّلعت فلاكسا على كلّ شيءٍ يخصُّ عَادات نانا، ويخصُّ دروسها مَعَ الطِّفلَين، وما تَفْعَلُ وما لا تَفْعَلُ عُمومًا.

قَرَّرَتْ أنْ تباشرَ هجومَها أثناءَ دَرسِ الغِناءِ. فَنانا تَكونُ عِندَئذٍ في الذُّرْوَةِ، مُرتاحَةً وَخَطيرَةً، لأنَّ الغناءَ الذي كانَ هَوَسَها أمدّها بالقُوَّةَ.

رُبَّما يَبدُو مستغربًا ألاّ تختارَ فلاكسا لَحظَةً مِنْ لَحظاتِ ضَعْفِ نانا بَدلًا مِن ذلك. لكنَّ هذا الخَيارَ كانَ مرفوضًا بالنسبةِ إليها، إذ أرادَتْ أنْ تَمنَحَ غَريمَتَها فُرصَةً عادِلَةً. فأن تعمدَ إحدَاها إلى الخداعِ لا يعتبرُ مقياسًا حَقيقِيًّا للقُوَّةِ. هذا إلى جانبِ أن نانا لم تَنلْ فُرصَةً لتَستَعِدَّ. طبعًا ليس مُمكِنًا مَنحها مِثل هذه

الفرصةِ، مَهما رَغِبَتْ فلاكسا في ذلكَ، فَنانا لا تَعترِفُ أبَدًا بِنَزاهَةِ اللَّعِبِ. كانَتْ عَديمَةَ الضَّميرِ، مُخادِعَةً، خَبيثَةً، وغادِرةً بِطَبعِها.

بيدَ أنّهما على الرّغم من كلِّ شيءٍ كانَتا أُختَينِ. وحالُ نانا كحالِ فلاكسا في كونِها كائنًا فَريدًا؛ قُوَّةً مِنْ قُوى الطَّبيعَةِ، وليستا بَشَرِيَّتَيْنِ تَمامًا، وهذا أمرٌ تُدركانه. ولذلكَ لا بُدّ من أنْ يَخضَعَ الصِّراعُ بَينَهُما إلى قانونِ الطَّبيعَةِ: الغَلَبَةُ للأَقوى. خَيْرًا كانَ أو شَرًّا.

بِناءً على هَذا لَمْ تَرَ فلاكسا أنّه من العدلِ شَنّ الهجومِ على نانا في لَحظَةِ ضَعْفٍ. فالمرءُ لِيهزمَ الشَّرَّ هزيمةً جوهريةً، عَليهِ أن يمنحَه كافَّةَ الفُرصِ المُتاحة، وخداعهُ مَرفوضٌ. وهذا يَنطلي علَى نانا.

لم تَخْفَ تلك الأمورُ على فلاكسا التي أنهَت استعداداتِها. ولَمْ تقتصِر هَذه الاستعداداتُ على نانا فقط.

أَوَّلًا وَقَبلَ كُلِّ شَيءٍ طَلَبَتْ مِنَ الحاكِمِ والحاكِمَةِ حُضورَ دَرسِ الغِناءِ مَعَ الطِّفلَينِ اليومَ.

لَمْ يرغَبا في ذلكَ طبعًا؛ إذ مَاذا يُمكنُ أن يفعَلا هُناكَ؟ ولكنَّ الحاكِمَةَ أُسقِطَ في يَدِها أمامَ حَزْمِ فلاكسا، وكذلكَ أُسقطَ في يدِ الحاكِمِ. فَكَّرا في تِلكَ النُّزْهَةِ النهاريةِ البَهيجَةِ ووَعَداها بالحُضورِ، فقد راودهُما شعور غامضٌ بأنَّ لِفلاكسا عَلاقَة بما جَرى، هذا مع أنّها لَمْ تَزِدْ عَن الجُلوسِ هناكَ في العَرَبَةِ، ولَمْ تَفعَلْ ظاهِرًا أيَّ شَيءٍ.

بَعدَئذٍ، أسرَعَتْ فلاكسا صاعِدَةً إلى غُرفَةِ البُرجِ لتُلقيَ بِبَعضِ الكَلِماتِ إلى كلوكة. اتَّفقا على أَمرٍ ما. وَغَرِقَتْ فلاكسا في أفكارِها. كانَت قَد فَتَحَت نوافِذَ

البُرجِ جَميعًا وَجَلَسَتْ هناكَ مُحاطَةً بنَسائمِ الصَّيفِ. هكذا استَجْمَعَتْ عَزيمَتَها قبلَ المُواجَهَةِ مَعَ نانا.

عِندَما بَدَأَ دَرسُ الغِناءِ مَضَتْ فلاكسا ميلدفَيدر مَعَ كلوكة الذي حَلَّقَ فَوقَ رأسِها مُمتطيًا ريحًا قويّةً ونزلا إلى غُرفَةِ نانا والطِّفلين. كانت تَحمل وِعاءَينِ مِنْ أَوعِيَةِ ألبرِتْ. وَحالما التَقَتْ الحاكِمَ والحاكِمَةَ ناوَلَتْ كُلًّا مِنْهُما وِعاءً وَطَلَبَتْ مِنهُما الاحتِفاظَ بِهِ طوالَ الدَّرس. شدَّدت على أنَّه ليسَ مِن المسموحِ أن يتخلّى أحدُهما عن حِمله.

نَظَرَت الحاكِمَةُ مُرتَعِبَةً إلى الوِعاءَينِ.

- يَبْدُوانِ كَدَمْعَتَين، قالَت.

- إنَّهُما دَمْعَتانِ، أجابت فلاكسا ميلدفَيدر بِنَبرَةٍ جادَّةٍ.

عاجَلاها بنظرةٍ متسائلةٍ وَلَمْ يُدرِكا ما ترمي إليهِ، لكِنَّهُما لم يجِدا مفرًّا من مواكبَتِها لمّا دَخَلَتْ بِخُطىً عَجولَةٍ على نانا.

هنا كانَ الدَّرسُ في ذُرْوَتِهِ.

لَمْ تُلاحِظْ نانا ولا الطِّفلانِ أولئكَ الثّلاثَةَ الّذينَ دَخَلوا الغُرفَةَ. أَشارَتْ فلاكسا للحاكِمِ والحاكِمَةِ بالتَّوَقُّفِ والمكوثِ صامِتَين.

تَخَلَّلَ ضوءٌ أخضرُ الغُرفَةَ. فالنّوافِذُ كانتْ مُغَطّاةً بالنَّباتاتِ المُتَسَلِّقَةِ، والسَّتائرُ كالجدرانِ خضراءَ اللونِ.

وقفَت نانا في وسطِ الغرفةِ تصدحُ بالغِناءِ.

ووَقَفَ كلاس وكلارا لِصقَ الجِدارِ مُحَدِّقَينِ فيها كالمُتَحَجِّرَين. وفي قَفَصٍ مُدَلّىً مِنَ السَّقفِ جَلَسَتْ مِمي.

بعدَ أن انتَهَتْ نانا مِنَ الغِناءِ سادَ الصَّمتُ لِدَقيقَةٍ مُرتَعِشَةٍ مشحونةٍ بالكَرْبُ، بَينَما وقَفت تنظرُ شزرًا إلى الطِّفلَين.

وَعِندَما أَخَذَ الصَّمتُ مَأْخَذَهُ قالَتْ بِحِدَّةٍ، رافِعَةً نَبرَةَ صَوتِها مَعَ كُلِّ كَلِمَةٍ:

– الآنَ نرى إن كانَ في آذانِكُما خَلَلٌ! غَنّيا! غَنّيا! غَنّيا!

لَم يَخْرُجْ مِنْ كلاس وكلارا سوى تِلكَ النَّقْنَقَةِ الفزعةِ المَبحوحَةِ المُعتادَةِ.

عندَئذٍ بَدَأَتْ نانا تَرتَعِدُ سُخْطًا، كوّرَت قَبْضَتَيها وسارَتْ بِخُطى بَطيئةٍ مُتَرَصِّدَةٍ نَحوَ الطِّفلَين.

وهنا حَدَثَ ما لَمْ تَحسُبْ حِسابَهُ. لمحَ كلاس وكلارا كلوكة الذي حَفَّزَهُما على الفرارِ.

لَمْ تَرَ نانا كلوكَة لكنَّها كادَتْ تَفقِدُ عَقلَها مِنَ الغَيظِ. وبِقَفْزَتَينِ مُخيفَتَينِ لَحِقَتْ بالطِّفلَين، وأسَرَتْهُما بذراعَيْها الهائلَتَينِ وقَبَضَتْ على أُذُنَيْهِما.

– أَظَنَنتُما أنَّ أُذُنَينِ غيرَ موسيقِيَّتَينِ كَهاتَينِ تستَطيعانِ التَّمَلُّصَ مِن عقابِهِما، زَمجَرَتْ، أيُّها الرِّعديدانِ. هلّا وَقَفتُما ساكِنَينِ أيُّها الفَأرانِ الجبانانِ!

في تِلْكَ اللَحظَةِ تباشرُ فلاكسا تَقدّمها منها.

كانتْ مُستَقيمَةً القامةِ، هادئةً، مشدودةَ الجَسَدِ كريشَةٍ فولاذِيَّةٍ، تَموَّجَتْ ياقَةُ البيلّيرين، وخَيطٌ مِن شُعاعِ الشَّمسِ مَرَّ بأجنِحَةِ الفَراشِ على قُبَّعَتِها فسَرَى فيها البريقُ.

تَراها نانا، فَتَتَراجَعُ مِن غيرِ أن تُفلِتَ أُذُنَي الطِّفلَين. تَنتَشرُ على وَجْهِها ابتسامَةٌ يستحيلُ وَصفُ الشَّرِّ والظَّفَرِ فيها، ويَلتَوي فَمُها بَينَما تَلمعُ عيناها بِحِدَّةٍ كَحِدَّةِ الإبَرِ.

لا تَبدو خائفَةً، ولا ذاهِلَةً حَتّى، بَلْ هازِئَةً لا غَيرَ. بَدَتْ غايَةً في الضَّخامَةِ، جَبّارَةً، هائِلَةً إلى حَدِّ أنَّ فلاكسا ميلدفَيدر تَكادُ تكونُ لا شيءَ أمامَها. لا يَتَرَدَّدُ أيُّ شَخْصٍ يراهُما الآنَ في تخمينِ مَنْ مِنْهُما الأَقوَى، مَن التي لا بُدَّ مِن أنَّها الغالِبَةُ.

يكادُ الحاكِمُ والحاكِمَةُ لا يَجْرُؤانِ على التَّنَفُّسِ حيثُ يَقِفانِ.

لكنَّ فلاكسا تَقِفُ وَظَهرُها لَهُما. لا يَرَيانِ عَينَيْها. وما ذلكَ بِغايَتِها، إذْ ما مِنْ كائنٍ بَشَرِيٍّ يُمكِنُهُ أن يتحمّلَ نظرةَ هاتَينِ العَينَينِ الآنَ. وَما مِنْ وَصفٍ يَصِفُها.

تَرتَعُدُ نانا إلا أنّها تبقَى صامِدَةً. نَظْرَتُها مُرعِبَةٌ هي الأُخرى، ولكنَّها مجرّدُ نظرةٍ شريرةٍ فقَط لا غيرَ، نظرةٍ لئيمَةٍ فَقَطْ، قاسِيَةٍ وَحَسبُ. أمّا نظرةُ فلاكسا فإعصارٌ، بُركانٌ يَقذِفُ حِمَمًا، زِلزالٌ، وفي الوقتِ نفسِهِ هي نظرةٌ نادِرَةِ الزُّرقَةِ، صافيةٌ لا يعكّرُها شيءٌ كَسَماءِ ليلَةٍ صَيفِيَّةٍ. هي نَظرَةٌ لا تنطَفئُ أَبَدًا.

وها هُو صَوتُها يَبلُغُ الأسماعَ، مُوغلًا في القِدمِ، مُرعِبًا، هادئًا:

– نانا، لا يَصيرُ الأطفالُ إلا ما رَبّاهُمُ المَرءُ عَلَيْهِ. انْظُري إلى ما في يَدَيكِ!

تُحاوِلُ نانا تَحَمُّلَ نَظرَةِ فلاكسا، وإذا بجَفنَيها يطرفانِ، تتبادلُ معَ أختِها التحديقَ مَرَّةً وَأُخرى، ثم تدركُ أنَّ عليها أنْ تَستَسْلِمَ. تُطَأْطِئُ رأسهَا لتنظرَ إلى الطِّفلَينِ.

تَتَراجَعُ بعنفٍ، تَعبيرُ الشَّرِّ في عَينَيها يَتَحَوَّلُ إلى رُعبٍ.

حَتّى الحاكِمُ والحاكِمَةُ يَقِفانِ كَتِمثالَينِ. إنَّهُمْ يَرَونَ ذلكَ جَميعًا.

تَقِفُ نانا مُمْسِكَةً بِأُذُنَيْ أصيصَينِ من الفخّارِ. لَمْ يكونا كلاس وكلارا. لَقَد اختَفَيا.

في هذهِ اللَحظَةِ تَصرُخُ مِمي. صَرْخَتُها أَقوى وأَفظَعُ مِنْ أيَّ مَرَّةٍ خَلَتْ. هي صَرْخَةُ يَقْظَةٍ هذهِ المَرَّةَ وفيها ألَمٌ لا يَنتَمي إطلاقًا إلى هذا العالَمِ.

عندَما يضمحلُ صَدى صوتِها، يتناهَى إلى أسماعِهم وقعُ زُجاجٍ يَتَهَشَّمُ. في جَميعِ أرجاءِ القَصْرِ يتناثَرُ الزُّجاجُ شَظايا. كانت تلكَ الصَّرخَةُ ثاقِبَةَ الحِدَّةِ بحيثُ صدّعت المَرايا جَميعًا وحَطَّمَتْ النَّوافِذَ كُلّها.

بِيَدَينِ تَحمِلان الشَّظايا يَقِفُ الحاكِمُ والحاكِمَةُ هناكَ. تَكَسَّرَ الوِعاءانِ على مَرأى مِنهُما ومَسمَعٍ.

تَشرَعُ الحاكِمَةُ في البُكاءِ ببُطءٍ.

لِلَحْظَةٍ قصيرةٍ يَتَوَقَّفُ كُلُّ شَيءٍ. يسيطرُ سُكونٌ هائلٌ لا يَسَعُهُ شَيءٌ سوى أرضٍ مهجورةٍ. كَأَنَّ الحياةَ لَن تَقوى على المُضِيّ بَعدَ ذلك. وكأَنَّ كُلَّ شَيءٍ انتَهى بَعدَ صَرْخَةِ مِمي.

عندئذٍ يُقلِعُ الغُرابُ الأَسْحَمُ كلوكة من مكانِه، ويحلّق بِهدوءٍ في الغُرفَةِ إلى أن يصلَ إلى قَفَصِ مِمي وَيَفتَحَهُ بمنقارِه.

تَطيرُ مِمي إلى الخارِجِ. إلى النُّورِ مُباشرَةً، تخرجُ منَ النافذةِ التي تحطّمت تَوًّا عابرةً من بين النَّباتاتِ المُتَسَلِّقَةِ المُتَشابِكَةِ. هناكَ في الخارِجِ في الهواءِ الطّلقِ تحلّقُ عاليًا فورًا، عاليًا في الفضاءِ وهي تصيحُ بفرحٍ. لا تَلتَفِت أبدًا، ولا تلبثُ أن تختفيَ بصياحٍ لا حدودَ له.

يَمكُثُ كلوكَة عندَ النّافِذَةِ يلاحقُها بنظرِه. وعندما تختفي نهائيًا يقولُ:

– في الماضي السَّحيقِ كُنّا صِغارًا مَعًا، كِلانا يَفْهَمُ الآخَرَ...

أَثارَتْ كَلِماتُهُ جوًّا فَريدًا، يتبادلُ الحاكِمُ والحاكِمَةُ النّظرَ حائرَينِ، والحاكِمُ

مُمْسِكٌ بيَدِها.

بدا أنَّ نانا فَقَدَتْ عَقْلَها كُلِّيًّا، استدارت مُضطَرِبَةً كاضطرابِ الحَمقى تُلَمْلِمُ حاجياتِها وهي تُتَمْتِمُ بكلامٍ مُبهمٍ بَينها وبَين نفسِها. تُغادِرُ الغُرفَةَ بِهَلَعٍ شديدٍ، ثم تعودُ في اللَحظَةِ التّالِيَةِ ثانِيَةً. تَهيمُ نَظرَتُها في المَكانِ وتَقِفُ عندَ فلاكسا. تَتَقَدَّمُ مِنْها، فَتلتَقي نَظرتاهُما بلا ضَغينَةٍ هذهِ المَرَّةَ. لَقَدْ خارَتْ قِوى نانا، فاستَسلَمَتْ.

وَكَأَنَّما هوَ أَمرٌ مَفروغٌ مِنْهُ تَقولُ لِفلاكسا:

– إلى لِقاءٍ قادِمٍ، يا أُختي.

فتهزُّ فلاكسا رأسَها بِشُرودٍ.

– نَعَم، تقولُ، إلى لِقاءٍ قادِمٍ...

ثُمَّ تَذهَبُ نانا.

في هذه الأثناء تقفُ الحاكِمَةُ مُستَنِدَةً إلى الحاكِمِ، ولا تَفعَلُ شيئًا سوى البُكاءِ. يُمَشِّدُ شَعرَها بَينَما يَبدو هو نَفسُهُ بائسًا، وخاليًا من أيّ لؤمٍ، وعاجزًا عن تحمّلِ مَنظَرِ أَصيصي الفخّارِ اللَذَينِ تأَخُذُهما فلاكسا في اللَحظَةِ ذاتِها وتتأبّطهما تَحتَ ذِراعَيها.

– إنَّهُ خَطَأي، يُرَدِّدُ، خَطَأي، خَطَأي. مَنْ يُمكِنُ أنْ يصفحَ...

– الصَّغيرانِ المِسكينانِ، تَنوحُ الحاكِمَةُ، أَلَنْ يَعودا إلى الحَياةِ ثانِيَةً؟ أَيَجِبُ أنْ يَظَلّا أصيصَي فخّارٍ إلى الأَبَدِ الآنَ يا آنِسَة؟

تَتَوَقَّفُ فلاكسا أمامَهُما، قبلَ مُغادَرَتِها. عَيناها العَجيبَتانِ مليئتانِ بالشَّفَقَةِ.

– لا، ليسَ إلى الأَبَدِ، تَقولُ. بَلْ طالَما بَقِيا هُنا فَقَطْ، فَفي هذا القَصْرِ لا

يُمكِنُ أن يُصبحا شيئًا آخَرَ.

– ماذا لَو عَادا إلى بَيتِهما؟ يَسألُ الحاكِمُ بِقَلَقٍ.

– نَعَمْ، عندَئذٍ يَعودانِ طِفلَينِ ثانِيَةً.

آنئذٍ يقولُ الحاكِمُ شيئًا لَمْ يظنّ في يومٍ أنَّهُ سَيَحتاجُ إلى قَولِهِ:

– شُكرًا.

وَتَهمِسُ الحاكِمَةُ مُتَلَعْثِمَةً:

– أتَمَنّى... أتَمَنّى السّعادَةَ للآنِسَةِ!

– وأنا أتَمَنّى السعادَةَ للحاكِمَةِ كذلكَ، تَقولُ فلاكسا وتَسيرُ نَحوَ البابِ.

هُناكَ تَلتَفتُ وَتُنادي:

– وَلِلحاكِمِ أيضًا!

عِندَئذٍ يَقولُ الحاكِمُ شُكرًا للمَرّةِ الثّانِيَةِ. وتلكَ هِيَ المرّةُ الأولَى التي تدعُوهما فِيها فلاكسا بالحاكِمِ والحاكِمَةِ، أيًّا ما عنَى هذا...

فردَ كلوكة جناحَيهِ وحَلَّقَ فوقَ رأسِ فلاكسا وَهيَ تمضي عَبرَ أروقةِ القَصْرِ حامِلَةً الأصيصَينِ الفَخّارِيَّيْنِ. بَدَتْ مُتْعَبَةً.

كان القصرُ يضمُّ ما هُو أكثر مِن اللازمِ من غُرفٍ وسلالم.

في إحدى الغُرَفِ مَرَّتْ بالحُوْذِيِّ المُسنِّ الذي انحَنَى أمامَ طاولةٍ مستديرةٍ تناثَرَتْ عندَ طرفِها شَظايا اثنَتَي عَشرَةَ كَأسًا مُهَشَّمَةً. وَقَعَ ظِلُّهُ على المفرشِ الأبيَضِ وبَدا كَظِلِّ عَقرَبِ ساعَةٍ تَوَقَّفَ إلى الأبَدِ.

تَقَدَّمَتْ فلاكسا ميلدفَيدر مِنهُ وَلَمَسَتْهُ.

– لا جَدوى من التَّفكيرِ في هذا الأمرِ بَعدَ الآنَ، قالَتْ بتؤدةٍ. صَرْخَةُ طائرٍ هِيَ ما حَطَّمَ الزُّجاجَ في الآونَةِ الأخيرَةِ، لا الولدُ الصَّغيرُ. والآن قد طارَ الطائرُ واختفى الطِّفلان. وَلَنْ يَحدُثَ شيءٌ آخرُ مِن بَعدُ...

لكنَّ الحُوذِيَّ لَمْ يَرَها ولَمْ يَسْمَعْها. كانَ شيخًا مُتَهالِكًا، وقَدْ كفّ عَن أَن يكونَ، والظِّلُّ أشارَ إلى السّابِعَةِ.

رأَتْ فلاكسا ذلكَ وأَدْرَكَتْ أنّ الليلَ قد حلَّ وأنَّ عليهِم أنْ يُسرِعوا.

غادَرَت القَصْرَ من البابِ الخَلفِيّ، وعافَت نفسُها الخروجَ من بَوّابَةِ المَدينَةِ، فعثرت على فرجةٍ صغيرةٍ في السّورِ تُفضي مُباشَرَةً إلى نَهرِ الذِّكرَياتِ المَنسِيَّةِ، حَيثُ كانَ يَرسو قاربٌ صَغيرٌ.

نَزلَتْ إلى القاربِ وَوَضَعَتْ أصيصَي الفخّارِ في المُقَدِّمَةِ، وأَخَذَ كلوكة مكانَهُ في المُؤَخِّرَةِ.

حلّت حبلَ القاربِ وَتَرَكَتْهُ ينزلقُ في الماءِ.

كانَت ريحُ النَّهارِ قَدْ هدأت، والماءُ رَقْراق، جَلَسَتْ هُنَيهَةً مُتَّكِئَةً على المِجدافَينِ بَينَما الشَّمسُ تَغرَقُ.

انعَكَسَ القَصْرُ على الماءِ. كَمْ بَدا القَصْرُ خَفيفًا! تَلألأ واضطربَ عِندما وَطئَهُ القاربُ في تقدّمه كَما لَو أنَّه يعبرُ في حلم.

بَدَأَتْ فلاكسا تجدّف بينما أسدلَ الليلُ ستارَه، ووجَدت في التجديفِ متعةً.

كانَ النَّهرُ عَميقًا يُخفي في دياجيهِ ذِكرَياتٍ مَنسِيَّةً عَديدَةً. إنَّ ما يَغرَقُ هنا يَضيعُ إلى الأبَدِ. وفلاكسا تعرفُ هَذا.

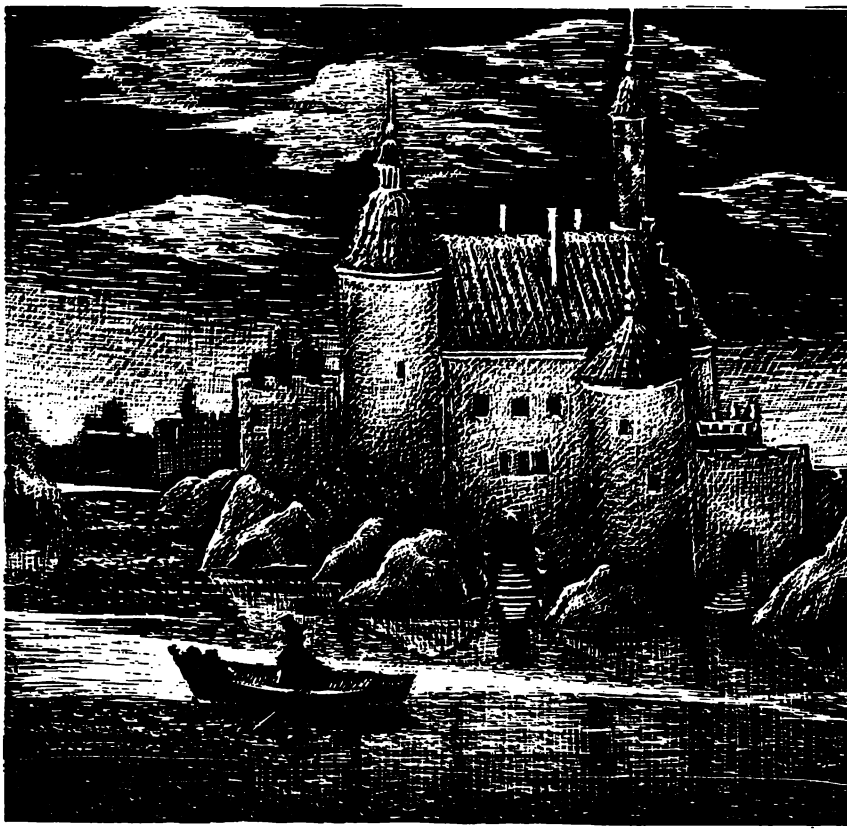

لمّا بَلَغَت الضفّةَ الأخرى عرفَت أيضًا أنَّ كُلَّ شَيءٍ قَدْ تَمَّ. تَرَكَتْ المِجدافَينِ والتَفَتَتْ إلى الخَلفِ بِبُطءٍ.

ورأت ما توقّعَت أن تَراه.

في القاربِ رَقَدَ كلاس وكلارا نائمَينِ. وما مِنْ أَثَرٍ لأصِيصي الفخّارِ. تناوَلَتْ بَطّانِيَّةً صَغيرَةً كانت في القاربِ ودثّرتهما. لاحَقها كلوكة بَنَظْرَتِهِ.

- لَقَدْ مارَسْتِ السِّحرَ، قالَ.

- بَل مارستُ الخداعَ البَصري، أَجابَتْ.

– بَصَر الآخرينَ أم بصركِ أنتِ، أَم ماذا؟

– في الواقعِ عليَ أنْ أرى ما أريدُ أن يراهُ الآخَرون. كانَ الأصِيصانِ صُورتَين وَهْمِيتين، وبقيَ الطّفلان على حالِهما طوالَ الوَقْتِ.

هزَّ الغرابُ الأسْحَمُ رأسَه بِحِكمَةٍ.

– عرفَ كلوكة هذا وَلَمْ تخدعهُ الحيلةُ، قال.

عندَئذٍ ابتَسَمَتْ فلاكسا وتأمّلته مطولًا ولَمْ تَزِدْ على ما قالَتْهُ شَيئًا. ثُمَّ أَرْسَت القارِبَ عِندَ شَجَرةٍ واستَلْقَتْ في قَعْرِهِ متدثّرةً بِمِعطَفِها البِيلّيرين، بَينَما كانَ كلوكة قد سبقَ أن استسلمَ للنّوم قبلَها بعدَ أن دسَّ رأسَهُ تحتَ جناحِهِ.

غدًا يواصلونَ سَفَرَهُمْ. علَيهِمْ أن يَستَريحوا الآنَ.

من الرائعِ أنْ تَعودَ إلى نَسيجِها ثانيَةً، فَكَّرَتْ فلاكسا ميلدفَيدر. فذلكَ على كُلِّ حالٍ هو ما أَرغَبُ فيهِ فَقَط. آمَلُ ألاّ يضطرّني شيءٌ إلى ممارسةِ السِّحرِ بَعدَ الآنَ. أنا أَكثَرُ حِكمَةً مِنْ أنْ أُمارسَهُ. هذهِ المَرَّةَ كانَ الأمرُ ضَرورَةً، ولكنَّ على المَرءِ حَقيقَةً ألاّ يَدَعَ مَكُّوكَهُ يَعبَثُ بِنَسيجِ الآخرينَ...

تأرْجَحَ القارِبُ في الماءِ مُهَدْهِدًا مَنْ فيهِ بِحُنُوّ.

ما لَبِثت فلاكسا ميلدفَيدر أنْ نامَتْ هيَ الأُخرى وقبّعتُها إلى جانِبِها، ونسيمُ الليلِ يُداعِبُ أجنِحَةَ الفَراشِ. ابتَسَمَتْ ابتِسامَةً خَفيفَةً في نَومِها لكنَّها لَمْ تَكُنْ تَحلُمُ.

المقطع الثّالِث:

«... إنْ حَدَثَ
أن نِلتَ مُرادَكَ،
فهذهِ مشيئةُ القَدَر.»
أناشيدُ غْروا

٢٠

كانَ دُكّانُ الدُّمى أوَّلَ ما وَقَعَتْ عَينا صوفيّا عَلَيهِ عندَما وَصَلَتْ إلى السُّوقِ. شَعَرَتْ بِوَخزَةِ ألَمٍ، ولَمْ تَجرُؤ على النَّظَرِ إلى الدُّمى، بَلْ أرادَتْ أنْ تُسرِعَ في الابتِعادِ عَن المَكانِ.

إلا أنَّ عَينيها عَاندتاها وبَقِيتا مُنجَذِبَتَينِ إلى هُناكَ، فانخَلَعَ قَلبُها مِنْ مَكانِهِ. مِنْ جَديدٍ عاشَتْ ذلكَ اليَومَ الرَّهيبَ الذي اختَفى فيهِ الطِّفلانِ. أمَا كانَ ممكنًا تَجنيبها هذا الألَمَ؟

في الموضِعِ نَفسِهِ، في الرُّكنِ نَفسِهِ من الدُّكّانِ عُلِّقَتْ دُمْيَةٌ تشبهُ تَمامًا تلكَ التي تَمَنَّتْها كلارا في الماضي. الدُّميَةُ ذاتُ المِعطَفِ المُخمَلِيِّ الأسوَدِ، والضفيرتينِ الشَّقراوين الطَّويلَتَينِ، والمِنديلِ البَنَفسَجِيِّ. الدُّميَةُ التي ادَّعَت العَجوزُ أنَّ كلارا اشتَرَتْها قبلَ اختِفائِها. ها هيَ تَتَدلّى هناكَ وصوفيّا تُحَدِّقُ فيها مَسحُورَةً ومَرعوبَةً كَأنَّها شَبَحٌ. تأرْجَحَت الدُّميَةُ جيئَةً وذهابًا في سِلْكِها، وَخُيِّلَ إلى صوفيّا أنَّ الدُّميَةَ تَنظُرُ إلَيها بعَينَيها الزَّرقاوَينِ اللامِعَتَينِ.

فَرَّتْ مِنْ هناكَ بِسُرعَةٍ وهيَ في أَشَدِّ الحُزْنِ. لَمْ تَنوِ قولَ شَيءٍ لألبِرت، فَلَمْ يَكُنْ مُجْدِيًا نبشُ الحُزْنِ القَديمِ لَدَيهِ هوَ أيضًا، فهو حزينٌ بِما يَكفي.

كذلكَ لَمْ تَقُلْ لَهُ شيئًا عَنْ رحلتِها الليليةِ بالخاتَمِ إلى فلاكسا ميلدْفَيدَر. وَلِماذا تَفْعَلُ ذلِكَ مُوقظةً فيه الأملَ السخيفَ الذي لازمها مُدَّةً؟

آمَنَتْ إيمانًا أعمَى بفلاكسا ميلدفَيدَر، وما زالَت إلى الآن تفعلُ أحيانًا، لَوْلا ذلك الشكُّ القبيحُ الذي بدأ في الظهورِ: أهذا كلّه ليسَ إلا خدعةً مِنْ فلاكسا لتَستوليَ على الخاتَمِ؟ ومع أنّها صَدَّت تلك الفِكرَةَ، ما فَتِئت تعاودُها مِرارًا.

عادَت أدراجَها جَريًا لِتساعِد ألبرت في الدُّكّانِ. كانَ زُجاجُهُ يُلاقِي، كَما جرى الحالُ في الآونَةِ الأخيرَةِ، إقبالًا ساحِقًا.

كان الوقتُ صَيفًا والشَّمسُ مُشرِقَةً. والسوقُ يضِجُّ بالناسِ المُبتهجين الذينَ تاقُوا إلى تَسالي المساءَ.

لكِنَّ صوفيّا، وَقَدْ باعَ ألبرت زُجاجَهُ كُلَّهُ بَعدَ الظُّهْرِ، أرادَتْ العودةَ إلى البَيتِ. إذ ما يمكنُ أن يفعلاهُ هناكَ؟ وهُما عاجزَين عن الشعورِ بأيّ بَهجَةٍ، ولا يُريدانِ أنْ يُشارِكا في اللَهْوِ.

وافَقَها ألبرت. هو أيضًا رأى أنّهُ مِنَ الأفضَلِ لَهُما أن يَعودا إلى البَيتِ، فَرِحلَةُ عَودَتِهِما سَتَكونُ جَميلَةً في هَذا الجوّ الرّائقِ، بَل حتّى يُمكنُ أن يَتركا الحِصانَ يسيرُ الهُوَينى طَوالَ الليلِ لَو تَطَلَّبَ الأمرُ، لِمُجَرَّدِ التَّخَلُّصِ مِنَ التَّجَوُّلِ في السّوقِ وما في ذلكَ مِنْ مُعاناةٍ.

لَمْلَمَ حَاجِياتِه مِنَ الدُّكّانِ، ومضَيا معًا إلى عَرَبَتِهِما التي ركناها مَعَ بَقِيَّةِ العَرباتِ في الغابَةِ المُحيطَةِ بالسُّوقِ.

سارا بالقُربِ مِنْ مَرعًى مُخَصَّصٍ بِسِياجٍ حَجَرِيٍّ حجبتهُ الطَّحالبُ. في المَرعى كانَ الغَجَرُ قَدْ نَصَبوا خِيامَهم. هناكَ أوقَفوا عَرَباتِهُم ونَشَروا غَسيلَهُمُ المُتَنَوِّعَ تَحتَ الشَّمسِ.

سَمِعا موسيقى آتِيَةً مِن إحدى العَرَباتِ، حيثُ استغرقَ أَحَدُهُمْ يعزفُ على

الكَمانِ لَحنًا حَزينًا. أَحَدُهُمْ، وكانَ وَحيدًا، بدا مُنهمكًا في عزفِه لمّا مَرّا مِنْ هُناكَ. وَعلى مَسافةٍ مِنَ المَكانِ حَطَّ غُرابٌ أَسْحَمٌ على السِّياجِ الحَجَرِيِّ. قبعَ ساكِنًا تَمامًا يتأمّلُ ظِلَّهُ باهتمامٍ عندَما مَرّا بِهِ. لَمْ يَفزَعْ ولَمْ يَطِرْ، على الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ رآهُما وَسَمِعَهُما.

– أَليسَ هذا غُرابُ فلاكسا ميلدفَيدَر الأعوَرُ؟ قالَ ألبرت وتَوَقَّفَ، فَرَفَعَ الغُرابُ رأْسَهُ عندَئذٍ، ولاحظَ ألبرت أنَّ للغُرابِ عَينَينِ.

– لا، قالَ، هذا غَيرُ مُمْكِنٍ. ذاكَ بعينٍ واحِدَةٍ، وهذا بِعينين اثنَتين.

أرادَ المُضِيَّ قُدُمًا، إلا أنَّ صوفيّا بَقيَتْ واقِفَةً. اقتَرَبَتْ خُطوَةً مِنَ السِّياجِ وتفحّصت الغُرابَ الأسْحَمَ مليًّا. كانَ فيهِ شيءٌ مألوفٌ جِدًّا. التَفَتَ يتطلعُ نحوَها بإحدَى عينيهِ وفيها نظرةٌ لَمْ تَستَطِعْ تَفسيرَها. ومع أنّها التَقَتْ بتلكَ النَّظرَةِ سابِقًا، لَمْ تَتَذَكّرْ مَتى حدثَ ذلكَ. بَدَأَ القَلبُ يَخْفِقُ بينَ الضُّلوعِ. عَينُ الغُرابِ الأسحَمِ كانت خَضْراءَ. طرفَت. غمرها شُعورٌ مبهمٌ، إدراكٌ مُدَوّخٌ مفعمٌ باللا واقِعيَّةِ. لا، هذا ليس ممكنًا.

لَحظتَها انتابها الشعور بأنَّ تلكَ العَينَ الخَضراءَ الغامِضَةَ قَدْ رَمَقَتْها في ضوءِ القَمَرِ مَرَّةً، وطرَفت مِثلَما فعلَت الآنَ بالضَّبْطِ. بَدا لَها أنّها تَألفُها.

حَجَرُ الخاتَمِ الأخضَرُ الذي أَقلَقَها دائمًا، والذي شعرَت أَنَّهُ يُراقِبها كَعَينِ مخلوقٍ ما؛ كَعَينِ طَيرٍ.

أكانَتْ تلكَ العينُ عَينَ كلوكة؟

دارَ في رأْسِها كُلُّ ما سَمِعَتْهُ عَنْ كلوكة. قيلَ إنَّهُ فَقَدَ إحدى عَينَيهِ مَرَّةً وهُوَ يَنظُرُ عَميقًا في بئرِ الحِكمَةِ. ولكِنَّها لَمْ تُصَدِّقْ ذلكَ مُطلقًا.

كما قيلَ إنَّ تلكَ العَينَ التي فَقَدَها كانَت عَينَ الليلِ، عَينَ القَمَرِ، عَينَ الشَّرِّ. لِذلكَ لَمْ يَعُدْ يَستَطيعُ رُؤيَةَ شيءٍ غيرَ النُّورِ والجَمالِ والخَيرِ. حَتّى ظِلُّهُ ما عادَ قادِرًا على رؤيتِهِ.

وهذا الغُرابَ الأسْحَمَ ها قَد قبعَ هناكَ يتأمّلُ ظِلَّهُ. ما يعني أنّهُ يراهُ، بَل أيضًا رأى أكثرَ مِنْ ذلكَ. هي عينٌ أبصرَت ما في بِئرِ الحِكمَةِ. أدركَت صوفيّا الآن أنَّ تلكَ ما هي إلا عَينُ كلوكة.

ولذلكَ لَم يَمنحها الخاتَمُ أيَّ شعورٍ بالراحةِ. فمَن ذاكَ الذي يَستَطيعُ تزيينَ إصبعِهِ بعَينِ كلوكة؟ كانت الفِكرَةُ قِمّةً في الإثارَةِ.

ألْقَت الشَّمسُ التي كادَتْ تَغيبُ شُعاعَها الغَسَقِيَّ. أَلْقَتْهُ بِقُوَّةٍ باهِرَةٍ. شَعْشَعت السَّماءُ كُلُّها بالنُّورِ فَجْأَةً. غَدا السِّياجُ الحَجَرِيُّ الذي حطّ عَلَيْهِ كلوكة أحمَرَ. أما الطَّريقُ فَكَأَنَّها تَوَهَّجَتْ بالذَّهَبِ.

غَمَرَ سُكونٌ عَظيمٌ الجِوارَ بِقَضّه وقَضيضِهِ. حتّى صخبُ السوقِ اضْمحلَّ. ما عادَ هناكَ شيءٌ إلا صوتُ الكمانِ الآتي مِنْ عَرَبَةِ الغَجَري في عزفِه المُتواصِلِ.

وَقَدْ تغيّرَ اللَحنُ، دارَ صراعٌ قصيرٌ مبهمٌ بَينَ النَّغَماتِ، فأَذعَنَ الحُزنُ أمامَ نَغمَةٍ بَهيجَةٍ قَوِيَّةٍ.

لَمْ تَكُن النَّغمَةُ جَميلَةً ولا مُتَكامِلَةَ البِناءِ، عَزَفَتْها يَدٌ مُتَّسِخَةٌ على كمانٍ بَسيطٍ، لكنَّها كانتْ نَغمَةً لا يُمْكِنُ أنْ يَغلِبَها شَيءٌ في العالَمِ، فهي إلى هذا الحَدِّ وأكثر صدحَت بِسعادةٍ حَقيقيَّةٍ.

شَعَرَ كلوكة أنَّ عليهِ أنْ يَتْبَعَها. فردَ جَناحَيهِ وطارَ محلّقًا في عَنانِ السَّماءِ.

أمسكَ ألبرت يَدَ صوفيّا واحتَضَنَها.

أصبحَ في وُسعِهما الآنَ أنْ يَرَيا العازِفَ وقد خَرَجَ مِنَ العَرَبَةِ وَجلسَ على صخرةٍ بَينَ أزهارِ الماءِ في المَرعى.

كانَ رجلًا قَصيراً، بالغَ القِصَرِ، أقرَبَ إلى القَزَمِ، التَحَمَ حولَ وجههِ شَعرُ رأسِهِ بِلِحيَتِهِ، وشعَّ مع مَغيبِ الشَّمْسِ. وكانَ طاعِنًا في السِّنِّ.

وسرعانَ ما ميّزا فيهِ الشيخَ الذي اشترَى ألبرت الخاتَمَ لِصوفيّا مِنهُ.

أما هو فلَمْ يَرَهُما، واستغرقَ فقَط في مُتابعةِ عزفِهِ. مكتبة ياسمين

عندَئذٍ، في منتصفِ الطَّريقِ الذَّهَبِيَّةِ رأى ألبرت وصوفيّا طِفلَينِ صَغيرَينِ

يسيرانِ قُدمًا وخلفَهما فلاكسا ميلدفَيدَر. شاهدا مِعطَفَها المُتَموّجَ وقُبَّعَتَها المُتمايلَةَ يُبْرِزانِ هَيئَتَها قُبالَةَ الشَّمسِ، بيدَ أنّها حالما لَمَحَتْهُما استَدارَتْ واختَفَتْ في النّورِ.

تابعَ الطفلانِ تقدُّمَهما وَحدَهُما. وطَفِق ألبرت وصوفيّا يَعدُوانِ نَحوَهُما. ما الآتيانِ هناكَ سوى كلاس وكلارا. يَسيرانِ بِهُدوءٍ، لَمْ يَتَغَيَّرا قَيْدَ أُنْملة عَنْ آخِرِ مَرَّةٍ رأياهُما فيها مُنذُ زَمَنٍ بعيدٍ.

يَقِفانِ طَويلًا مُحتَضِنَينِ الطِّفلَينِ. لا أَحَدَ مِنْهُمْ يَقولُ شَيئًا، ولكنَّ كلارا تَأْخُذُ بَعْدَ فَتْرَةٍ يَدَ صوفيّا بِلَهْفَةٍ وتَمضي في الطَّريقِ مَعَها، تَمامًا كما مَضى، كما اعتادَتْ أنْ تَفْعَلَ.

– يَجِبُ أنْ نَذهَبَ ونتفقّدَ الدُّميةَ يا أُمّي، تَقولُ، أَتَظُنّينَ أنَّها ما زالتْ هُناك؟

عِندَئذٍ يُدْرِكُ ألبرت وصوفيّا أنَّ الطِّفلَينِ قَدْ نَسِيا كُلَّ ما حَدَثَ مَعَهُما في فترةِ غِيابِهِما. ويا لكثرةِ ما تساءلا كَيفَ لِذلكَ أن يَحْدُثَ.

إنّما كَيفَ لَهُما أن يَعرِفا أنَّ مَنْ يُجَدِّفُ عَبرَ نُهَيرِ الذِّكرياتِ المَنسيَّةِ لا يتذكّرُ أبَدًا ما جَرى على الشّاطئِ الذي رحلَ عنهُ. ولا يبقى في ذهنهِ شَيء غيرَ ما يَجْري على الشّاطئِ الذي يَبْلُغُهُ.

لَنْ يَتَذَكَّرَ كلاس ولا كلارا القَصْرَ أبَدًا، هما لا يتذكّرانِ الحاكِمَ ولا الحاكِمَةَ. ولا حَتّى نانا.

لَقَد غَرِقَ كُلُّ شَيءٍ في النَّهرِ إلى الأبَدِ.

مع ذلك سَيَتَساءلانِ أَحيانًا، لِماذا يَخافانِ عندَما يصعَدانِ سَلالِمَ طويلَةً عَالية. أو لِماذا يهرعان نَحوَ مِرآةٍ وقَلباهُما يكادانِ يَطيرانِ فَرَقًا، خَوفًا مِنْ أن تَكونَ المِرآةُ

خاوِيَةً. ولِماذا تَغمرُهما سعادةٌ عظيمةٌ إنْ تَمكَّنا أن يَريا انعكاسَهما فيها؟

وأحيانًا قَد يَستيقظان في مُنتَصَفِ اللَيلِ وهُما يَعتقدان أنَّهُما مَغلُولانِ إلى عِملاقٍ ما. لكِنَّ صوفيّا سَتُشعِلُ شَمْعَةً آنذاكَ وتقولُ إنَّهُ مجرّدُ حلم:

– الأحلامُ كالغَمامِ، ستهمِسُ في أُذُنَيْهِما برِقَّةٍ، الأحلامُ تأتي وتَذهبُ كالغَمام...

وعندَئذٍ يَنْسَيانِ ثانيَةً.

يدركان أنّه ليسَ إلا مُجرّدَ حلم.

أمّا في هَذا المَغيبِ العَجيبِ فلا يُفكّرانِ في شَيءٍ مِن ذلِكَ.

يَسيرانِ مَعَ أبيهِما وَأُمّهِما في السُّوقِ. يَريانِ دِبَبَةً تَرقُصُ، وَفَتَياتٍ يَتمايَلن على أعمِدَةٍ. يركَبانِ الكاروسيل وينالانِ الهَدايا.

وفي دُكّانِ الدُّمى بيعَتْ الدُّمى جَميعًا. ما عَدا الدُّميَةَ ذَات الضَّفيرتين الشَّقراوينِ والمِعطَفِ المُخمَليّ والمنديلِ البَنَفسَجيّ.

تَبدو صاحِبَةُ الدُّكّانِ العَجوزُ مُضطَرِبَةً، تبدو مذهولةً، فَهيَ لَمْ تُلاحِظْها سابِقًا، على حَدِّ قَوْلِها. وَهيَ مُتَأَكّدَةٌ تَمامًا من أنَّها لَمْ تَصْنَعْ دُمْيَةً كَهذهِ لهذا السُّوقِ. وأنَّ وُصولَها إلى هناكَ لُغْزٌ. ولكن ما همَّ كلارا وصوفيّا مِنْ ذلكَ؟

فَلْيَكُنْ ما يَكُونُ بهذا الشَّأنِ. وحالَما تضمُّ كلارا الدُّميَةَ إلى صدرِها، تَمضي الأمورُ كَما يَنبغي لَها أن تَمضي. وعندئذٍ تَكتَمِلُ الدّائرَةُ وتَجري المياهُ في مَجاريها. ولا حاجَةَ لأن يعرفَ أحدٌ شيئًا آخَر. ولا أن يدركَ شيئًا.

يَكفي أنّ فلاكسا ميلدفَيدَر تَعرِف. قَدرُها أن تَعرفَ وتُدرِكَ أكثَرَ مِنَ الآخرينَ.

في هذهِ الليلةِ عاوَدَت الوقوفَ تَحتَ شَجَرَةِ التُّفّاحِ التي أزهَرت. ورَأَتْ أنَّها سَتَحملُ ثِمارًا كثيرةً حَتّى يأتي الخريفُ، أكثرَ بِكَثيرٍ مِمّا يُمكنُها عَدُّهُ.

رَأَتْ أنَّهُ سَيَكونُ عامًا سَعيدًا.

– كلوكة، أَتَعْرِفُ الآنَ، أمْ لا؟ قالتْ بنبرةٍ حالمةٍ وهي تتأمّلُ الغرابَ الأسحمَ الذي حَطَّ على الشَّجَرَةِ.

– نعم، أَعرِفُ، قالَ الغُرابُ.

تبادلا النّظرَ.

– غَدَتْ عَينُكَ خَضراءَ مِنَ المُكوثِ طَوالَ هذهِ المُدَّةِ في بِئرِ الحِكمَةِ...

– أعرفُ، قالَ كلوكة.

– وماذا تَعرِفُ أيضًا؟

صَمَتَ الغُرابُ الأسْحَمُ في البِدايَةِ، ثمّ رَمَقَها بِنَظْرَةٍ قَمَرِيَّةٍ وَأَجابَ:

– كُلَّ شيءٍ. قبلَ أنْ تَعرِفَ الشَّمسُ أينَ سكَنَتْ، قبلَ أنْ يَعرِفَ القَمَرُ ما السُّلطَة التي امتَلك، قبلَ أنْ تَعرِفَ النُّجومُ أينَ سَتسقرّ. عَرَفَ كلوكة ما هيَ الحَياةُ.

أنْصَتَتْ فلاكسا ميلدفَيدَر مُتَفَكِّرَةً وَهزّت رأسَها مُوافِقَةً على كلماتِهِ.

عادَ الغُرابُ الأسْحَمُ كَسابِقِ عَهدِهِ. عادَتْ عَينُهُ إلَيْهِ. تلكَ العَينُ سحيقَةُ القِدَمِ. وبذلكَ لَمْ يَعُدْ شيءٌ خافيًا عَلَيْهِ. بإمكانِهِ أن يَرى الآتيَ والماضيَ منَ الزَّمانِ كسابِقِ عَهْدِهِ.

ها هوَ يَنظُرُ إلَيها بِعَينِهِ الأُخرى، عَينِ الخَيرِ، التي لَمْ تَجرؤْ على تَصديقِها سابِقًا عِندَما لم يكُن لديهِ غَيرها. ولكنَّها الآنَ تُصَدِّقُها. وما لبثَت أن غمَرت

عَينيها هي نظرةٌ مُفعمةٌ بالأملِ، مُفعمةٌ بزُرقَةِ الفيرونيكا.

– إذًا يمكنني أنْ أعودَ إلى نَسْجي الآن، قالَتْ ودَخَلَت الكوخَ.

مَكَثَ كلوكة على الشَّجَرةِ. مُنصِتًا...

أصغى إلى ضَرَباتِ النَّولِ. إلى هَسيسِ الزَّمَنِ. إلى النَّدى الذي يَقطُرُ على العُشبِ...

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook